لحظات عابرة

نص روائي

حسن لشهب

arabworldbooks.com

إلى أبنائي

arabworldbooks.com

إلى أمين ومهدي
بشكل خاص

arabworldbooks.com

الإهداء

الموت زوال .....
والحب دوام.....
أمامهما لا مفر.

إلى من غيبهم الموت

arabworldbooks.com

قادتني جولة إثر محاولة الكشف عن معنى ال "عبارة" من خلال مجلدات لسان العرب سعيا وراء ما يثري معرفتي بالكلمة إلى تبين الكثير واكتشاف وفرة في المعنى والدلالة، فكان أن وقفت على بعض مما ذكره ابن منظور حول مختلف سياقاتها:

عَبَرَ الرُؤيا يَعْبُرُها ...وعبَّرها: فسَّرها...
والعابر: الذي ينظر في الكتاب
..... وعَبَرْت النهرَ والطريق أَعْبُره عَبْراً وعُبوراً إذا قطعته من هذا العِبْر إلى ذلك العِبر....
العابر:
الناظر في الشيء، والمُعْتَبرُ: المستدلّ بالشيء على الشيء.....

arabworldbooks.com

وعَبَّر عمَّا في نفسه: أَعْرَبَ وبيّن. وعَبّر عنه غيرُه: عيِيَ فأَعْرَب عنه، والاسم العِبْرة.....
وعَبَر الكتابَ يعبُره عَبْراً: تدبَّره في نفسه ولم يرفع صوته بقراءته.....
. وفي التنزيل: فاعْتَبِرُوا يا أُولي الأَبصار؛ أَي تدبّروا ...
والعَبْرة: الدَّمْعة، وقيل: هو أَن يَنْهَمِل الدمع ولا يسمع البكاء، وقيل: هي الدمعة قبل أَن تَفيض، ...
قولهم: لك ما أَبْكِي ولا عَبْرَةَ بي؛ يُضْرَب مثلاً للرجل يشتد اهتمامه بشأْن أَخيه، ...
ويقال: عَبَرَ فلان إِذا مات، فهو عابر، كأَنه عَبَرَ سبيلَ الحياة.
وعبَرَ القومُ أَي ماتوا؛ قال الشاعر:
فإِنْ نَعْبُرْ فإِنْ لنا لُمَاتٍ،
وإِنْ نَعْبُرْ فنحن على نُذُور...

كذلك تحدث شيخنا ابن منظور في لسان العرب عن العبارة وأحوال العبور والعابرين.

وفي سياق رحلتي للتقصي عن المعنى وفهمه والكشف عن الحق، صادفت في صفحات قراءاتي ما دعاني للتدبر دون العبور، واحدة من فيوضات النفري :

"إذا علمت علماً لا ضدَّ له، وجهلت جهلاً لا ضدَّ له، فلست من أهل الأرض ولا من أهل السماء."

arabworldbooks.com

ولأني من أهل الأرض وكتب لي السعي وراء العلم وتعليمه وعشق التحليق في أعالي وسماوات الفكر، كنت وما أزال، دائم السفر والترحال عبر مجاهل اللغة والحقيقة، متدبرا علامات الوجود والرؤيا فكان ما كان من تغير الحال وتحول في الحل والترحال ..

وبينما كنت ذاهلا عما يحوطني من شؤون الحياة والناس، حصل ما لم أكن أعلم، وكبر عندي شعور بأنني لم أجن سوى النزر اليسير مما جعلت منه وكدا أكيدا، ولم أغرف منه عدا قطرة لا تروي عطشي ولا تفي ما به أبلغ منتهى الغرض من وجودي.

هكذا واجهت جهلي حين حدث ما لم أكن أعيره بالا ولا اهتماما يا صديقي ...

arabworldbooks.com

لحظة الحيرة والانطلاق

لما دخلت إلى شقتي بعد يوم قلت أحداثه لدرجة الملل، هجمت على أنفي روائح الغبار، أسرعت بفتح النوافذ لتجديد الهواء داخلها.
كنت أشعر ببعض الاستياء مما صرت ألاحظه من تحول غريب في أحوال الحياة والناس.

حاولت إقناع نفسي أن حياتي المتردية لا يجب أن تغرقني في اليأس، وأنني بحاجة فحسب لبعض الوقت للتكيف مع ما حصل في حياتي من مستجدات خصوصا بعد أن تلقيت خبرا آلمني بشدة.

عبد الرحمن صديق المثقفين كما كنت تسميه، توفي يوم أمس بشكل فاجأ الجميع، لا أعرف كثيرا من التفاصيل حول الحدث ولم أسع إلى البحث عنها طالما أن ذلك لن يغير من الأمر شيئا. عبد الرحمان غادر الدنيا بلا ضجيج، أحسست أن الموت ضرب داخل دائرة انتمائي ومس بواحد من أصدقائي.
كان هذا الحدث منبها بأن أمرا جللا قد حدث ومن اللازم توقع سقوط قلاع الكلام وأقنعة المتداول والمعتاد!

عبد الرحمن منبع الطيبة والمودة مات بشكل مفاجيء...

arabworldbooks.com

لم تكن تظهر عليه علامات مرض معين ولعل هذا هو ما يبرر شعوري بصدمة غير معتادة.

لفني اكتئاب حاد وأنا أجول بين الشوارع المرصوفة، المحفوفة بنباتات وأشجار وإقامات فاخرة. جلست بالمكان حيث ألفنا الجلوس بمقهى الملتقى كما تعلم. كان الجو مثقلا بروائح التبغ، الزبناء المعتادون كل في مكانه، تعالت سحابة دخان سيجارتي الأولى إلى سقف المقهى وتابعتها بنظري حتى تبددت ..

على الرصيف تمدد كلب ينشد البرودة والراحة، متسول يمد يده المرتعشة طلبا للعون، ثبت عينيه في عيني يستمد العطف. نجحت خطته فيما يبدو. سلمته درهما أخذه على مضض بعد أن رشقني بنظرة عتاب.

عبد الرحمان كان الوحيد من رفاق الشلة الذي يستجيب للمتسولين في المعتاد.

عادت بي الذاكرة إلى لحظات التحاقه بمجلسنا، كان له أسلوب خاص وهو يلقي التحية على الجميع بكثير من الود والتواضع. كما عادت إلى ذهني ابتسامته الهادئة، كأن هذا الرجل جاء إلى الدنيا مبتسما قلت ذات يوم. تبدو عيناه وكأنها تحتضن العالم كله كما لو كان يختزن في روحه معدنا يمنعه من الشكوى والغضب. أتذكر أنني ألححت عليه مرات أن ينفعل ولو مرة واحدة، ولعلك تذكر كم تفنن منا أكثر من واحد لإثارة غضبه ودفعه للانفعال، فكان مصير محاولاتنا هو الفشل، لم يكن لديه رد فعل آخر غير الابتسام وردود الفعل الهادئة بطعم الكبرياء.

arabworldbooks.com

حدث موت عبد الرحمن جعلني حزينا ما في ذلك شك، لأن المقعد الأخير من شركاء جلسات مقهى الملتقى سيكون فارغا منذ الآن. استولى علي الخوف بشكل مزعج لدرجة التغيب عن جنازته. ظللت بالبيت ألتهم السجائر فوق السرير وأحدق بسقف الغرفة بنظرات فارغة. في تلك اللحظات تذكرت جدتي وأمي ووالدي وبكيت، شعرت بوحشة حارقة.

أذكر أنني لم أبك لحظة موتهم مثلما بكيت الليلة ، وهو أمر اعتاده مني الكل. شكلوا عني صورة لشخص متبلد الإحساس جامد كالصخرة فاقد للعاطفة على خلاف بني البشر جميعا...

ليلة وفاة عبد الرحمن كانت الأبشع على الإطلاق، أرق وكآبة وحزن وكوابيس.. ظللت طوال الليل واجما أحاول الفهم بلا فائدة.

لم أستوعب موت عبد الرحمان، ولعل ذلك هو ما دفعني لأعتزل الناس والحديث في الموضوع، ربما تجنبا للتصديق النهائي على غيابه الأبدي، أو هكذا خيل لي على الأقل.

وبقدر ما كنت أغوص في ذكرياتنا المشتركة، بقدر ما كنت أغوص في أعماق كينونتي وتحديد المغزى من حياتي.

الموت حدث يزلزل اليقين بالحياة هذا أمر مؤكد، إنه قضاء الله قال نور الدين نادل المقهى حين علم بالخبر ولاحظ ما سببه لي هذا الحدث حين طلبت منه أن يقطع صوت أم كلثوم الذي ملأ فضاء المقهى بإشارة معبرة عن حالة الضجر...

arabworldbooks.com

لا تيأس من الدنيا قال لي وهو يضع فنجان القهوة أمامي، أشعلت سيجارة أخرى بعد الرشفة الأولى، حركة روتينية معتادة تؤكد العلاقة السحرية بين القهوة والنيكوتين، والتي تخفى على غير المدخنين...

لا تستسلم بهذا الشكل قال النادل، هذه سنة الحياة ولا مبرر للصمت والغياب غير المعتاد، هم السابقون ونحن اللاحقون، والحي أبقى من الميت، نسأل الله له المغفرة والجنة .. .

قمت من مكاني بعد أن أعطيته ثمن القهوة، سرت في اتجاه المراحيض لأفرغ مثانتي علني أتخفف من بعض الضيق ثم غسلت يدي ووجهي كما لو كنت أتطهر من درن كآبتي. ورحت بعدها هائما على وجهي بين الجموع وأنا أمسك نفسي من الداخل عن البكاء.

ما أكثر الأمور التي تفهم بالصمت أكثر من الكلام. وما يعمق ألمي هو مثل هذه الذكريات التي تشدني إلى الماضي أكثر من الحاضر. قد أكون ضحية وهمي، لكن قبل ذلك أنا ضحية حلمي الذي استهلك مني ما لم أستوعبه من تغير الأحوال؛ وبالرغم مما عرفت، ما اغترفت شيئا مما وراءه سعيت سنين عددا.

الجو الذي أصبح يميز فضاء حياتي لم يكن طبيعيا، كما لو أنني استيقظت من نوم طويل، لم أكن مستعدا لهذا التحول السريع، تفككت الشلة الشقية واحدا واحدا كحبات عقد آخرها عبد الرحمن الطيب... تغيرت شوارع المدينة ونبتت أحياء وعمارات واكتظت الشوارع بالناس، ولم يعد ممكنا قضاء حاجة بعد الآن دون السؤال. بدا لي أنني ضائع في مدينة غريبة عني،

arabworldbooks.com

ولعلي أصبحت أنا الغريب الذي فقد كل شيء! فقدت نظام الحياة وشلة الأصدقاء. وها قد غادرنا عبد الرحمن بدون سابق إنذار.

فهل من الممكن أن يتعود الإنسان على الحياة بعد فقدان كل عزيز؟ وما أكثر الذين غابوا في خضم الأحداث!

لم تكن كآبة عابرة بالتأكيد، وبقدر ما غمرني من حزن أدركت تفاهة الحياة، بل تفاهة وجودي الخاص، وطفقت أحدث نفسي في شقتي المتربة مثل المعتوه: لقد سقطنا ضحايا خدعة ، الحياة مجرد خدعة ما في ذلك شك. أتذكر كلام المحمودي حين قال ذلك هنا بهذه الشقة ، كنا نسميها العالم الأصغر الذي يتحكم في العالم الأكبر هههه

مجرد تخاريف حمقى مهووسين بالكلام، كنت أعيش حالة تجاذب بين الاستمرار في لعبة الكلام وبناء الحقيقة وبين الاعتراف بتفاهة ما نفعل.

كانت الشقة ملاذا نهرب إليه لدفن أحلامنا في الثرثرة ومعاقرة الكؤوس، ولما يصيبنا الملل نلتقي في الخميسات بمسكن صديقنا علي بين الفينة والأخرى. لم نكن نختلف كثيرا عن أبطال ثرثرة فوق النيل، عناصر "الشلة الشقية" تشتتوا الآن، عبد الرحمان مات بصمت، شفيق استهوته أموال الخليج، ومرتجي جره حلم الزواج بشقراء إلى السويد، أما المحمودي فقد ابتلعته حانات الدار البيضاء ينظم القصائد فوق أوراق الكلينكس، بينما هاجر علي منذ مدة إلى كندا، بعدما عاش تجربة زواج مؤلمة. تلقى طلب زوجته للطلاق كما لو كانت استمرارا للكابوس الذي عاشه معها، حينها قرر الهروب إلى مكان بعيد، ولم تجد محاولاتنا نفعا لثنيه عن هذا القرار..

arabworldbooks.com

وفي خضم انشغالنا لم ندرك ما حصل حتى بلغنا خبر بيع الصيدلية التي كان يملكها بمدينة الخميسات واستقل الطائرة كما علمنا فيما بعد فاندثرت أخباره بعدها بشكل نهائي.

في واحدة من لحظات كآبتي تصورت أنني تلبست الجنون بشكل كامل؛ كنت أرى الناس بشكل مختلف بعضهم مشع يصيبك بعمى الألوان بل حتى بالعمى الكامل، وبعضهم كمصابيح منطفئة لكنها تهدي إلى الطريق بنور فضي هادىء كالنجوم، يريح أذهان المتعبين من وعثاء الطريق.

لا أكترث لوضعي، وفي المعتاد أبقى مستسلما للدهشة التي تحتل كل المساحات من ذهني، فالأهم أقول لنفسي هو أن أبقى في الطريق رغم نظرات الناس التي تسحق عيني، حتى ولو كنت ذاهلا عما حولي، وقدماي تفترسها الشوارع. ورغم ذلك أقاوم حتى أثبت بصري ليبقى ممتدا عميقا في فراغات حياة انطفأت جذوتها مع الأيام، وبين مسارات ما تزال جاذبة ومغرية، وأقضي ليلي جائلا عبر صفحات كتبي واكتئابي وبداخلي صوت يرغي كالموج:

أي زمن هذا!

أي زمن هذا !

arabworldbooks.com

لحظة العصف والحرقة

arabworldbooks.com

وثمة في العقل ألف سؤال زاحف كالسيل. حتى بات حالي مجرد هباء وكان الحق مع من قال :
لك ما أَبْكِي ولا عَبْرَةَ بي.
مشكلة حقيقية أن تكون موجودا في العالم لكنك تبتدع عالما آخر تحقق فيه توازنك.
شربت القهوة التي أعدها نور الدين بمقهى الملتقى باكرا، في مكاني المنعزل. لم تكن جيدة كالمعتاد وربما شعرت بها أكثر مرارة في ذلك اليوم .
عبد الرحمن الطيب غادر الدنيا باستحياء، مثلما كان دائما في حياته مستحييا في الحضور والغياب؛ لن يظهر بعد الآن ليلقي علينا التحية بلطفه المعتاد. شعرت بمرارة الفقد وبالخوف مما سيأتي.
ولما أواني العالم الأصغر لاحظت أنه صار مأوى للصمت والفراغ وأعقاب السجائر وزجاجات خمر يزمجر الريح في أوصالها، عدا عن الكتب التي علتها العناكب والغبار...
علي أن اتصل بعلال حارس العمارة، من أجل دعوة السيدة طامو لتنظيف الشقة فقد سهوت عن فعل ذلك منذ فترة، زوجته كانت هي التي تتكلف بهذه المهمة قبل أن ينخر عظامها داء التهاب المفاصل، وفيما بعد صارت مهمة السيدة طامو بتوصية منها هي بالذات. ويحرص سي علال دائما على

arabworldbooks.com

تذكيري بوضع أشيائي الثمينة في مكان آمن، هي امرأة طيبة ولكن من يدري لا تساهل مع الشيطان.

- لا تقلق آسًي علال أثمن ما عندي هي الكتب وهي لن تنفعها في شيء.

سي علال جندي متقاعد في الأصل وحافظ على أسلوب الصرامة في معالجة وتدبير شؤون العمارة، وهو ما جعله يستمر في مهمته كحارس مدة طويلة، هو عمل يناسبني يقول سي علال، بفضله أظل في مأمن من التشرد أنا وأبنائي، لدي سكن مجاني أسفل العمارة وأغلب السكان لا يبخلون علي بشيء، فضلا عن كونه يضمن لي أجرة إضافية فالحمد لله على كل شيء.

كآبة رمادية داهمتني في تلك الأيام، ومن عقلي انبجست أسئلة كبرى، وتكالبت علي مشاعر الغموض والالتباس تنهش يقيني بما سبق وما سيأتي.

فوضى الشقة كانت صورة للفوضى السائدة في دماغي، لم أعد أخطط لما سأفعله في الغد منذ مدة. يستحوذ على ذهني شعور بقرب نهاية العالم، فقدت الأشياء متعتها ورونقها، وحتى الإحساس بالوجود أضحى فاترا تافها، مملا، مثيرا للغثيان وبلا معنى حد المرارة.

أتذكر صديقي عباس مدرس اللغة الفرنسية الذي انتهى به المطاف مجنونا ومتشردا، ربما كان أكثر إدراكا لطبيعة الحياة حين كان يعود لشقته ثملا، ولم يكن يردد غير عبارته اليتيمة : آه يازمان!

عاش على هذا الحال عشر سنين قبل أن يزج به في مستشفى الأمراض العقلية، بعدها اقتحم الشوارع ليعلن تفاهة الزمن والوجود.

arabworldbooks.com

قصدت المرحاض للتبول وأنا فريسة لمشاعري وذكرياتي، وخيل لي أن ما يستحقه هذا العالم هو أن تبول عليه، لا شيء فيه حقيق بالاهتمام. كان التبول في الطفولة مصدر سعادة وفرح بعد الخروج من الجامع أو من المدرسة، وأصبح الآن مصحوبا بالمرارة. ربما هذا ما يفسر رائحته القوية ولونه البني وليس قلة شرب الماء!

ما فائدة الحب والعراك من أجل المال والجاه والكد والجهد واحتلال المواقع في هذا الزمن ..؟ ما فائدة الصمت، وما فائدة العبارة؟

رن هاتفي في الصباح، في المعتاد لا أتلقى أكثر من ثلاث إلى أربع مكالمات في الأسبوع، فأنا بصورة عامة لا أعشق العبارة الفارغة المكرورة عن الطقس والمجاملات المعتادة التي يبرع فيها أغلب الناس، أصاب بالتلعثم كلما حاولت مجاراتهم في حلاوة السلام والسؤال والدعوات بالصحة ودوام الحال..

يمازحني الأصدقاء بخصوص هاتفي النقال لأنني أنساه حيث هو حينما أغادر الشقة، فالأفضل أن تسميه بالثابت . اندهشت وأنا أسمعه يرن مرتين متتابعتين، فأدركت أن من يطلبني له رغبة ملحة في الكلام. فكان أن سمعت على الطرف الآخر صوت عبد العزيز الزوهري الذي قلت أخباره هو كذلك منذ أن أحيل على التقاعد.

بعد السؤال عن الحال والأحوال، وعبارات الأسى لموت عبد الرحمان والدعوة له بالمغفرة وجنات الرضوان. شعرت من خلال عبارات عبد العزيز الحانقة والمتعاقبة، بحاجته لإفراغ حمولة غضب ضاغطة والبوح بما

arabworldbooks.com

يعتمل في دواخله. سألته عن الذي يكدر خاطره بسبب ما لمست في نبرات صوته من سخط على الدنيا والزمن الأغبر، وسرعة تبدل الأحوال والناس. فشرع يحكى مع بعض المرارة ، ماجرى له مع ابنته التي كانت كل حياته.

"سأنتقل للسكن في الرباط" قالت.

بهذه البساطة بلغتني ابنتي سهام بقرارها!

توقفت عن قراءة الجريدة ورفعت نحوها عيني بنظرة ارتياب، لم أكن مصدقا لما أسمع.

- هل أنت جادة؟ سألتها
- كل الجد قالت، وأريدك أن لا تعترض.
- هل أخبرت والدتك ؟
- والدتي معتادة على معرفة كل شيء قبلك يا والدي المسكين!

لا أخفيك يا صديقي أنني رأيت شريط حياتي يتدحرج أمام قدمي، استبدت بي رغبة في ركوب سيارتي والسير بها إلى أي جهة بعيدا، نحو مكان أكون فيه غريبا حتى عن ذاتي، ولكن المهم هو أن أبتعد عما يؤلمني، فلا تستغرب يوما لو انقطعت عنك أخباري، لا أضمن رد فعلي بكل صراحة.

أتذكر الآن يوم ولادتها، كانت أمي الأقل سعادة لأن المولود لم يكن ذكرا، ليبقى حسك في الدنيا بعد أن تغادرها قالت أمي، فليس أفضل من إبن يحمل اسمك ويدعو لك بعد موتك يا ولدي، وكم ألحت علي للإنجاب مرة أخرى

arabworldbooks.com

لكن بلا جدوى، الآن أدركت أننا جميعا كل من جهته ننظر للحياة من زوايا مختلفة.

بقدر ما أنا مدرك لحقها في التحرر وتحقيق ذاتها، بقدر ما أواجه ضعفي بسبب عاطفة الأبوة . ويبدو أن اختيارك هو الأصح " لا عين رأت ولا قلب وجع" وضحك ساخرا، كنت أتصور أنها ستمكث معي بالبيت الذي ولدت فيه حتى ولو تزوجت، ستكون هي وأولادها رفيقة شيخوختنا .

هل كان سوء تقدير حين اتخذنا أنا ووالدتها قرار إنجاب طفل واحد، وجاءت هي، كنت سعيدا بالتأكيد، كنت أتصور مثل كل الناس أن الفتاة تبقى ابنة إلى الأبد وترتبط بعائلتها .

على عكس الإبن الذي يصبح عضوا في عائلة زوجته، لقد صدقت نبوءة المرحومة أمي؛ فإخوتي ينعمون اليوم باستمرارية العلاقة مع أولادهم، بل إن ابنة أخي الأكبر تسكن مع زوجها في الطابق العلوي لبيت والدها. بينما وجدت نفسي أمام سوء وعاقبة اختياري مستسلما لاختيار ابنتي باعتزال البيت.

اكتشفت مؤخرا بأنها تدخن، لم أخبرها بذلك، وأنت خير العارفين أن هذا السلوك محرج اجتماعيا أكثر مما هو مقلق لنا فكريا. نحن ننتمي لجيل لا ينظر لهذا الأمر يعين الرضى، لكني أتجنب إثارته فقط . لقد تغير كل شيء، منطقنا أصبح متجاوزا، ولا أخفيك أنني شعرت فجأة بضآلتي وغبائي. يأكلني الندم لما أتذكر كلام المرحومة أمي، أجدادنا كانوا أكثر واقعية وفهما

arabworldbooks.com

لتقلبات الزمن، وما نحن إلا مدّعون، كل يوم أشعر بألم حاد كأنه نحيب داخلي مكتوم يخترق جسدي من قمة الرأس إلى أخمص القدم.

لقد غادرت منذ ثلاثة أيام، صعب عليها أن تراني حزينا قالت والدتها، فتركت لي رسالة قصيرة " كتبتها بالإنجليزية " see you soon old father "أراك قريبا يا والدي العجوز" هكذا بهذه البساطة، تناديني بالعجوز مثلما تخاطب أي شخص كبير السن وتجهل اسمه.

هي الآن مهندسة ومن حقها أن تشتغل. ولكن لم لا يكون ذلك هنا بمكناس؟ تصور أنها رفضت العمل هنا في نفس المدينة وبأجر محترم. صدقني فما تريده هو الحرية . هذا ما جنيناه ياصديقي، علينا أن نعوم في بحرنا الآن.

قال ذلك ببالغ التأثر، وأضاف وهو يغالب دموعه، كأن روحي غادرت جسدي الذي صار بأكمله مؤلما، لم يعد يهمني شيء بعد الآن وأقصى ما أتمناه هو مغادرة الدنيا بصمت وهدوء.

بدا لي عبد العزيز وكأنه يشعر بنفسه عاريا ومتخلى عنه. وما كان يرغب فيه هو أن يجد من ينصت لما يعتمل في صدره ...

انتابني إحساس بلا جدوى الكلام، رغم ما نقوله عن سحر اللغة وقوة الكلمات، أتساءل: بأي كلام يمكن أن نعزي النفس حين تكتشف أن ما غنمته من الحياة في نهاية المطاف هو بكل بساطة وقوف أمام الموت الذي يفضح ضآلتها وعبثية ما صارعت من أجله سنين طوال.

arabworldbooks.com

مؤلم أن يشعر الإنسان بأن كل ما قام به كان بلا جدوى. يخيل لي أنني أيضا، رغم أن حظي من الحياة قليل، لن أكون سعيدا برؤية ابن لا يكلف نفسه عناء زيارتي إلا لحظة مرضي أو احتضاري. لم أمنح اسمي لمن لا يهمه أمري سوى لحظة الموت...!

أنا لا أكابر بخصوص هذا الأمر، دعني أقولها بكل قوة :

الموت أهون وأجدى من إنجاب الوهم. إنها وضعية بوار الحقيقة ونهاية القيم، فالحقيقة بكل جمالها ووقارها بحاجة للحضور والامتداد لا للانكماش والانقراض، تقاوم الوهم وظلمة الغباء العنيدة... فهل يلتئم الحضور مع الغياب؟ أحدهما يلغي الآخر بالضرورة ومن حيث المبدأ؟ فلم التفكير في الزواج قصد الإنجاب أصلا !

لحظة الأوبة والاحتراق

arabworldbooks.com

آلمني ما حكاه عبد العزيز، لم تعد الأيام كما سلف من الأيام ولا مثلما عشناها فيما مضى بعد غياب شلة الأصدقاء. غياب عمق حال العزلة والبعاد...وكأني بأكتافيو باث يتكلم بلساني قائلا:

أنا يا صديقي كما تعلم، سجيتي لم تتغير فأنا اجتماعي منعزل، أخالط البشر من كل صنف ثم أهرب من الجميع باحثا عن نفسي.

لم تغيرت الأشياء وظروف الحياة؟ لم صار العيش مؤذيا ؟ لم غاب الشعور بالسعادة؟

الوهم يغل الإدراك، يجعل الناس سعداء بالتفاهات؛ يخيل لي أنه بغياب القلق لا يستقيم معنى الأشياء، وفي غياب المعنى يفقد الوجود غايته.

لذة وهمية يعيشها الإنسان في هذا العصر! تكرسها صور وألوان تحل محل واقع صار يبتعد عنه بسرعة الضوء ويغرق بين ثنايا فضاءات وهمية متعالية عن الحياة أبعدته عنها مسافات إضافية. ضقت ذرعا بالهواتف والحواسيب التي غزت كل الفضاءات كالجراد. والتي بقدر انتشارها عمقت غباء البشر! ...

ضقت ذرعا بدخان السيارات والحشيش والكم الهائل من النفاق والكلام البذيء الذي غزا كل مكان وصار على كل لسان...

arabworldbooks.com

حاذر، قلت لنفسي، حاذر أن تستخف بخطر العنف والنفاق، هو سيل وامتداد كالعواصف، فهل عليك أن تبادل فضاء الحكايا بأرصفة تنزف دما وصراخا؟ ... ما عاد الكلام يجدي يا صديقي، ما عاد للحلم متسع من المكان!...

تربكني مسارات حياتي أحيانا، أحاول تثبيت مركبي لأسير مستقيما نحو ما سطرته من أهداف، لكنني لا أتحمل الزحمة والتدافع مثلما يحصل حين أجد نفسي وسط جموع هائلة من الناس تحدث ضجيجا هائلا في مظاهرة، أو جماهير خارجة لتوها من ملعب لكرة القدم، أحاول الإفلات عبر أزقة ملتوية وكأني أواجه أمواج المحيط الهائجة فوق مركب صغير بلا مجاديف...

يوم الإثنين لسبب ما غيرت طريقي لأتفادى موقف سيارات الأجرة حتى لا أتجه صوب الحانة، لم يكن أمرا مخططا له، فقد أصبحت أعيش خارج نظام الزمن الإداري، وقد سبب لي ذلك شعورا بالروتين والملل.

غيرت اتجاهي صوب المدينة القديمة ربما اشتياقا لأيام واراها الزمن، فالصدف لها سحرها وأسرارها ...

بعد جولة قصيرة بين دروب المدينة القديمة ، هالني اكتظاظها بالسابلة والباعة وحجم القمامة في كل الأركان وأعداد الكلاب التي تتقاسم الفضاء مع البشر.

جموع من الناس، وجوه شاحبة من داخلها تطل عيون جائعة، اكتشفت مندهشا تكاثر الناس بشكل لا يصدق، يسيرون في كل ناحية كأنهم يتحركون داخل متاهة، لم يعد بالإمكان معرفة الاتجاه بسهولة، أغلقت دكاكين وحلت محلها أخرى لبيع منتوجات بلاستيكية بشعة، غاب وجه سي عبد السلام

arabworldbooks.com

ومعه غابت أدخنة وروائح الشواء اللذيذ، وجوه كثيرة كانت مألوفة لم يعد لها أثر، صناع تقليديون وأصحاب حرف، مصنوعات يدوية زاهية غابت من المتاجر ومعها غابت روائح العطارة وعبير الأعشاب....
لاحظت وأنا هائم على وجهي أن المدينة صارت تأوي عددا هائلا من البشر غريبي الأطوار، سقطوا في جاذبية السلع الصينية ومهاوي حياة أضحت مجنونة مع توالي الأيام... المدينة أضحت تأوي أكثر مما تحتمل، لعل ذلك هو ما يفسر ما ينتاب الناس من ضيق وقلق ونوبات انفعال، فما كان خفيفا كان إيجابيا وما كان ثقيلا جمع كل السلبيات، لا أذكر من قال ذلك، لكنه ينطبق على حال مدننا التي صارت ثقيلة مكتظة بكل تأكيد.
لم أنتبه لأمي السعدية، كما ألفت أن أسميها، منزوية بأحد الأركان بجانب طاولتها المفروشة بالفطائر والحرشة والبغرير. كانت تحييني وتعاتبني على عدم السؤال عنها:

- هل نسيت أمي السعدية، منذ مدة لم تشتر مني الفطائر التي تحبها، ما سبب غيابك كل هذه المدة؟

قبلت رأس المرأة الطيبة المناضلة في السبعين من عمرها، حافظت على صلابة نظرة عينيها وقوة ساعديها، رغم ما عانته من أجل تربية أبنائها مع زوجها سي الهادي. لم تتغير هيئتها كثيرا، اللهم من بعض ما خلفه الهم والزمن على وجهها من تجاعيد وانحناء قليل في الظهر...
التمست لنفسي الأعذار عن الغياب ثم سألتها عن الصحة والأحوال.

arabworldbooks.com

بالتأكيد يجد الناس البسطاء عزاء في الحكي عن صعوبات الدنيا، وتشتد سعادتهم بما غنموه منها على قلته ومحدوديته، يفخرون بما بلغوه من نتائج وفي أعينهم يلمع نور النصر باعتزاز.

أخبرتني المرأة أنها مع زوجها صارا وحيدين، بعد أن زوجت ابنتها الصغرى لسائح أمريكي أغرم بها، وقبلها زوجت الكبرى لجندي يعمل بالجنوب بمدينة الريصاني، أما ابنها البكر، فمازالت أخباره غير مطمئنة تقول أمي السعدية، بعد أن غامر بحياته في قوارب الموت إلى الضفة الأخرى، تارة يتصل بها من بلجيكا وأخرى من هولندا ولا تعرف له مكانا قارا، المهم هو أن يكون حيا وهذه نعمة وبركة من الله يا ولدي...

- مبروك زواج البنتين، وما حال سي الهادي، كيف هي صحته؟ فاجأتني مي السعدية بجواب فلسفي:
- أنت تعلم يا ولدي بحكم السن الذي بلغناه، نحاول قدر الإمكان تحمل مصاعب الحياة، وفي سننا يتلخص الزواج في ألفة العيش مع شخص اعتدنا على وجوده ، كل منا يسأل الآخر عن حاله وأحواله وأخبار الأبناء والجيران أحيانا يربت على كتفي أو يدي تعويضا عن سعادة مفقودة أو مستحيلة. ومع ذلك يا ولدي فإن فائدة الحياة التي تبقى للشيوخ في هذا العالم هي مراقبة كيف يحيا باقي البشر. نحن أخذنا نصيبنا وما كتب الله لنا من الدنيا.

هكذا نحن يا ولدي الحياة لا تمنحنا كل شيء والمهم هو القناعة والرضى وخلو الجسد من المرض والألم.

arabworldbooks.com

أخذت من أمي السعدية فطيرتين لفتهما في ورق أبيض ودستهما في كيس بلاستيكي شفاف. ودعتها بعد ذلك وهي تمطرني بدعواتها كالمعتاد.
ولأنني لم أكن أنوي العودة للشقة، أعطيت الفطيرتين لأول متسول صادفني في الطريق.
طفقت ألف بين الأزقة دون وجهة محددة، حنيني لوجوه ألفتها كان حاضرا وكنت منتشيا ساهما في سماء الذكريات، ثمة آلام وبسمات وأحداث مختزنة، وثمة خيبات واراها الزمن تحت رماد الأيام...
ملصقات لمرشحي الانتخابات بأزقة شتى عبثت بها أياد مجهولة، واجهات المتاجر لطختها شعارات "الألتراس" اجتمعت فيها اللغة الفرنسية والإنجليزية وشتى من الصور والكتابات الفوضوية غزت فضاءات المدينة، يسمونها "الجرافيتي" خصص لها بعضهم وقتا للدراسة والبحث وكأنها تستحق الدراسة من الأساس هههه...
بدأت أشعر بالتعب، شعور بالغربة انتابني بين الأزقة، فقدت أصوات الناس هدوءها وبهجتها، وخلت نظراتهم من طيبتها، غابت روائح الشاي والنعناع المكناسي، وأغلقت أبواب دكاكين الخياطة التقليدية ومعها غاب "البرشمان"، وورشات نسج الزرابي، وتزايدت أعداد من الباعة يفرشون كل شيء فوق الأرض...
جاوزت الساعة الواحدة فقصدت مطعم سي ميمون الذي ما زال صامدا يصارع محلات ماكدونالد، والتاكوس.

arabworldbooks.com

في هذا المطعم أجد ضالتي من وصفات الأكل البلدي، طلبت صحن كبدة مشرملة وسلاطة فلفل وطماطم بالثوم والزعتر وزيت الزيتون، كما كانت تحضرها الجدة لالة مينة رحمها الله.

لم أكد أتناول اللقمة الأولى حتى فاجأني صوت شلومو، واحد من الأصدقاء الذين اختاروا الغياب عن فضائنا المشترك، وكعادته خاطبني ضاحكا وبصوت مرتفع:

- كل شيء يتغير إلا أنت، ماتزال في مكانك مثل الديناصور.

شلومو هذا من اليهود المغاربة ولد بمكناس وأقام بها مدة طويلة مع عائلته، كان صاحب شركة نقل للبضائع ورثها عن أبيه، وبعدها انتقل إلى الدار البيضاء حيث قضى أكثر من خمسة عشر سنة واستقر في فرنسا التي انتقل إليها أبناؤه للدراسة والعمل، لكنه رفض بشكل مطلق بيع مسكنه بالمدينة القديمة في مكناس فكان يعود دائما ليقضي هنا فترة قد تطول أحيانا لأشهر كاملة، أو تقصر بحسب الظروف.

مازحته ضاحكا بعد أن جلس بجانبي:

- طال غيابك ، تزورنا على الأقل مرتين في السنة، لكنك أكملت سنة من الغياب هذه المرة. يبدو أننا يجب أن نفكر في إسقاط اسمك من لائحة المكناسيين هههه
- لن يجرؤ على ذلك أحد، أنا مكناسي وكذلك سأبقى، وسأدفن هنا بإذن ربي هذه وصيتي لأبنائي، هل تعتقد أن مغربيتي قد تضاءلت لمجرد

arabworldbooks.com

السكن في فرنسا ، نحن اليهود مثلكم نقول حرق الأبدان ولا مغادرة المكان. أنا مغربي وسأبقى كذلك إلى أن أموت .

وتابع قائلا :

- مؤكد أنك ما تزال عازبا، ألم ترغب في الاستقرار مع أي واحدة من صديقاتك، أعرفك يا ذئب المدينة القديمة، لا تفلت منك إلا من لم ترها عيناك! تزوج وكفاك تيها ومكابرة لا مفر يا صديقي فالنساء مصدر متعة وخراب في نفس الوقت ومهما خاتلت في النهاية ستأخذ نصيبك من الخراب مثل كل رجال العالم هل يمكنك تصور الرعشة والمتعة بعيدا عن المعاناة والألم؟.

لقد جاوزت الستين وفي هذا السن بالذات أنت بحاجة لزوجة ترعاك، أم تراك ترغب في قضاء حياتك عازبا .

وأضاف ضاحكا

- لا تقل لي أنك مللت هواية الصيد اللهم إلا إذا صار الجهاز لا يصلح إلا للبول ...
- أنت تذكرني بالمرحومة أمي يا شلومو والتي كانت لا تخلو صلواتها من دعوات بأن يمنحني الله بنت الحلال لتنعم برؤية أبنائي قبل أن تموت، ولكن الظاهر أن دعواتها لم تستجب إلى اليوم.
- هذا بسبب الصخرة التي تحملها فوق كتفيك، فالله لم ير لديك استعدادا لمنحك ابنة الحلال، سنرى إلى أي مدى تطول مقاومتك أيها العازب المتصلب.

arabworldbooks.com

قال ذلك مقهقها حتى كاد يسقط بالكرسي على قفاه.
راقني أن أضحك مع شلومو ونحن نشرب كأس شاي بالشيبة بعد وجبة الغداء. ضحكت من كل قلبي كما لم أفعل من مدة، استرجعت مع هذا الرجل لحظات من العمر رممت بعضا من جنبات الذهن المتداعية، تركته بعدها مع دعوة للغذاء يوم الغد على حسابه، رغم إلحاحي بأن المفروض هو أن تكون الوجبة على حسابي، فضحك مجددا وهو يقول:

- أنت هو الضيف، لا تنس أنني أكبر منك سنا وأقدم منك في مكناس، أنت عندي ضيف دائم هههه.

شلومو إنسان طيب وكريم، لا يروقه إزعاج أصدقائه، بل كان يتقن دوره كواحد منا يشاركنا الأفراح والأحزان.
انخرط في بكاء صامت لما علم بموت عبد الرحمان لدرجة شعرت معها بالحرج لأنني لم أبك مثلما بكى هو، وألح علي لمصاحبته إلى منزل عائلة المرحوم دون تأخير، من أجل تقديم واجب العزاء، فاستجبت على مضض لأن هذه الوضعيات تشعرني بالحرج، فأنا كما تعلم أرتبك في مواقف التهنئة والعزاء حتى ولو أسعفني القلب بفيض من المشاعر لا تسعفني الكلمات لأعرب عن مكنونه كما أريد.

arabworldbooks.com

لحظة الغربة والاستفهام

هل تحولت جموع الناس إلى أطياف وصور؟ هل غاب الحب وصرنا كائنات بلا أفئدة حتى بدأنا نعشق البعد والعزلة؟
"لكننا لا نعي ما هي الوحدة كما يقول فرانسيس بيكون إلا قليلا، ولا كم هي ممتدة، لأن الجموع ليست صحبة، بل هي مجرد معرض للصور الشخصية ،.... وهناك لا وجود للحب"
يخيل لي أن الناس أصبحوا مجرد كائنات بلا معنى... مجرد سجناء يدورون في حلقة مفرغة، يوزعون المرتب أقساطا حسب ما عليهم من التزامات وديون: البيت، السيارة، مصاريف الدراسة وساعات الدعم، الكتب، الماء والكهرباء والمطعم والسجائر، ...الخ
ثم تبدأ دورة جديدة في انتظار المرتقب اللاحق...
بقدر ما كنت أغوص في أغوار كينونتي، وأطارد الماضي مثلما كنت أطارد الفراشات في صباي كالمجنون، ماض حافل بأحداث دخلت قائمة الذكرى، لكنه يأبى إلا أن يعود للذهن في كل آن مرة أخرى .
تزايد شعوري بتفاهة الوجود وعبثيته، صرت لا أكاد أميز فيه شيئا غير الضباب، لا شيء غير الضباب. وهل بوسعي أن أرى غير ذلك في فضاء متناقض مستفز وغامض ؟...

arabworldbooks.com

يبدو أن الأفضل بالنسبة لي هو اعتبار وجودي فائضا عن الحاجة مثل ضيف غير مدعو للحياة، فلم يكن لدي حظ مما يريده باقي الناس ويحلمون به. في الغالب كنت أصل متأخرا لأجد المكان مشغولا.

لا يهم كنت أقول، ليس ضروريا أن ننجح في كل شيء، ربما يعود السبب لاختلال في نظام الفكر وغياب القدرة على التوقع لدي.

عاتبني شلومو بشدة في اليوم الموالي ونحن نتناول صحن " التقلية واللوبيا " في مطعم سي ميمون، هذا الطبع الكتوم لا يناسب العصر يا صديقي. أنت رجل طيب، مثال للوفاء، لهذه المدينة الزاخرة بعبق الحضارة والتاريخ والوفاء للأصدقاء والذاكرة، أعلم أنك لم تغادر مدينتك إلا للتدريس بالرباط. لهذا أدرك صعوبة ما تعانيه بعد غياب من ألفت العيش معهم من الأصدقاء، لا تكن كحاطب ليل فلن تجني إلا الخيبات.

لم تصر على العيش بأسلوبك السابق، السجائر والكحول وحدها كافية لتقضي عليك .الحياة تتغير، ليس بإمكانك أن تعيش هكذا بعد اليوم عليك بالزواج ، كيف لك أن تستمتع بالعيش وحيدا بعد أن جاوزت الستين!

لا يمكنك ليٌ عنق الواقع ليلائم اختيارك، صحيح أن الحياة لا تمنحنا كل ما نشاء ونشتهي ولكن عليك أن تتسلح بالمرونة واللين، فلا مبرر لهذا التصلب، فلم هذا السأم المزمن يا صديقي؟ قال شلومو. غريب أنك لم تتصل بي لتخبرني بحالك وأحوالك أليس بيننا ذكريات لا تشترى بالمال؛ نحن من نفس الجيل نفهم بعضنا بلا مجاملات ولا صعوبات، لو شئت مكثت

arabworldbooks.com

إلى جانبك لبعض الوقت، أو تعال معي إلى فرنسا، عساك تستعيد نشاطك وحيويتك.

ولك أن تبقى بمنزلي قدر ما تشاء من الأيام، هو خال في معظم الأوقات، لأن زوجتي العجوز تقضي معظم أوقاتها مع أبنائها وأحفادها. ولربما تصادف يا صديقي فيلسوفة مجنونة من طينتك هناك، تنسى معها حتى من أين أتيت هههههه.

سوف تستمتع بعطلة بعيدا عن أوراقك وكتبك، عليك أن تمنح نفسك بعض الراحة، وقضاء وقت جميل يبعدك عن روتينك اليومي، ستكون في بيت أخيك، ولا تتحجج بالمال، عليك فقط أن تنفض الغبار عن جواز سفرك وكل شيء على حسابي.

قال ذلك وهو يربت على كتفي محاولا إقناعي باقتراحه، فحاولت التهرب بالقول:

- يكون خير إن شاء الله. أرد عليك فيما بعد.

كلما حاولت تجاوز عوائق غربتي واغترابي أدركت أنني ربما وجدت خطأ، في غير زمني؟ ربما بعده أو قبله، لكن الحقيقة أنني لا أنتمي لهذا العالم، هذا أمر واضح. ولعل هذا هو ما يدفعني إلى الإسراع للعودة إلى قوقعتي وأغوار ذاتي بخطى الفرح والحزن، وأضحك حتى من محاولتي لأكون مثل الآخرين وأنا ساهم منقاد لجولان أفكاري.

arabworldbooks.com

لاعلم لي بما سيحدث غدا، وما ينتظرني من آلام قد تعصف بحياتي. ومع كل الأسف الذي يغمرني وأنا أشاهد سنوات العمر تتساقط ورائي. يبقى الماضي محلقا في حضن الذاكرة.

أحدث نفسي مرارا، كم بقي من العمر نقضيه في الركض وراء علامات استفهام؟ وبين الفينة والفينة يراودني الشعور بأنني امتلكت ما أريد!

دعنا نشيخ أولا حدثت نفسي! عفوا ألم تبدأ الشيخوخة منذ لحظة الولادة على رأي هيدجر؟ ! لا يهم دعنا نشيخ إذن، ولندفن شبابنا في عالم لم يسعفنا لنغنم فيه ما يكفي ليسعد أرواحنا، ولم نشف فيه من غبائنا الأبدي.

يستعصي علي انتشال ذهني من مطبات دهشة تقلب في روحي مواجع الفقد والغياب، حالة انسياب الوقت بهدوء ممل تجعلني معذبا بثقل الصمت.

تأخذني اللحظات من ناصيتي نحو عتمة التيه والترقب، أتهاوى على ضفاف السؤال منهكا في باحة الصبر.

شعور بالغربة يأتيني في هزيع آخر وله ارتدادات وتداعيات في كل أحقاب نومي ويقظتي، شعور ساحق بالتيه والضياع مثل شخص وحيد في صحراء ممتدة، كيف لي أن أتعود على الإحساس بالفقد وعدم امتلاك شيء يثير الاهتمام، والمتعة والإثارة.

لحظة في حضرة الخمرة والموت

arabworldbooks.com

فأنا يا صديقي "لا أخشى الموت لكنني أخاف ما سأفعله بحياتي". لا أذكر أين قرأت هذه الجملة، لكن تذكرها لا يفسره إلا كونها تطابق حالتي النفسية وتعبر عنها بدقة...

حين باغتتني فكرة الموت وأدركت أنها حدث لا ريب فيه، تحولت مع الأيام إلى هوس استحوذ على كياني كله، لم أكن قادرا على استيعاب الفكرة أنا الذي اعتدت على الحلم بثبات الأشياء وانعدام التحول. صرت أردد ذلك بمناسبة وبدونها، حتى في كلامي مع الآخرين، أذكر ذلك بقدر من المرارة لم تفلح الأيام في تهدئتها.

...

وفي لحظة ما وجدت نفسي أشرب بغزارة، على غير المعتاد علني أبني حاجزا بيني وبين الموت ، لم أكن أعي أنني بهذه الطريقة اخترت من حيث لا أدري طريقا سريعا يقود إلى حتفي بشكل أسرع كثيرا. " الطاسة "، كما يقول صديقي المحمودي، هي الحل ...

تحتضنك النشوة بلطف وتلفك بعناية، بعدها تسلمك للدوخة العميقة، كأنك نائم ليس أكثر... لا يهم أين تنام وحدك أم صحبة سهام أو عبير أو لطيفة أو أي منهن، تكاد لا تتذكر الأوجه والأسماء والأجساد إلا فيما ندر... أحيانا تنام ببيت أحد الندماء، وحتى خلف مقود السيارة، تخال نفسك قد وصلت للبيت مع أنك لم تقو حتى على تدوير المحرك. بعد استعادة قليل من الوعي تعود

arabworldbooks.com

للبيت لتنام طوال النهار فلا تستيقظ إلا بعد أن يقرص الجوع معدتك. تفتح عينيك المنتفختين وتشعر بريقك مرا وأنفاسك مقززة، فلا تتخلص من كل ذلك إلا في الحمام.

تأخذ دشا ساخنا لاستعادة نشاطك، فنجان قهوة سوداء على الريق، أحيانا تتبعه بقرصي أسبيرين أو دوليبران فوار. تغير ملابسك وتقصد مطعم سي ميمون، صحن عدس وحوت مشوي وسلاطة وبعض الفاكهة، فخذ دجاج أو كبدة مشوية ووو حسب المزاج والشهية ..

بعدها تعود لحانة روا دولا بيار كالمعتاد .

ذات ليلة عدت أحمل في جيب سترتي زجاجة ويسكي أغلقت الباب خلفي، وبعد التخلص من حذائي وسترتي ملأت كأسا منها ورحت لجلب قطع الثلج حافيا، ولما عدت وجدت الموت بانتظاري، تمددت الشهقة بأعماقي كموجة هادرة أو هكذا خيل لي على الأقل. ها قد حلت الحقيقة، لم تعد هناك حاجة للبحث عنها.

تأملت الماثل قبالتي متمايلا وأنا أروض جسدي ليتماسك. جسد دخاني مائل إلى الزرقة هيكل عظمي بارز بوضوح عينان حمراوان إلخ إلخ باختصار شديد اجتمعت في الماثل أمامي كل الصفات التي توقعتها أو تصورتها للموت.

ها قد أزف موعد الانتقال إلى الآخرة قلت لنفسي، الأمر ليس مرعبا جدا كما كنت أتصور، علي فقط أن أتصرف بشجاعة وأكون رجلا حقيقيا وأتقبل

arabworldbooks.com

الأمر بلا وجل. رفعت رأسي لأخاطب الموت لأقول له أنا على استعداد، فلم أجد أمامي غير سحابة دخان سيجارتي يتراقص كثعبان ثمل.

ضحكت من حالي صباح اليوم الموالي. صرت أعاني من الهلوسة أيضا ربما بسبب الثمالة وضغط الوحدة.

ومع ذلك تساءلت: ليت الموت يكون متاحا بهذه السهولة! يأتيك في لحظة، ويقول لك هيا سآخذك معي لقد قضي الأمر. قلت لي لما حكيت لك الحدث، خذ حريتك مع أفكارك وهلاوسك شريطة أن يبقى الأمر سرا بينك وبين نفسك فبعض الناس لا تروقهم مثل هذه الحكايات.

لحظة عن الزمن والصمت

arabworldbooks.com

لعلك تدرك قيمة الصمت في مواقع شتى وما نجنيه من منافع ونتجنبه بفضله من مضرات ولا شك أنك تعرف أن "الإنسان يحتاج إلى سنتين ليتعلم الكلام وستين سنة ليتعلم الصمت".

لعل همنغواي خبر هذا الأمر بعمق وهو يكتب هذا الكلام. وربما تنشأ الحاجة للصمت لمن في مثل حالي بحكم ما استهلكه الكلام من وقت على مدى حياتي بأسرها فبات الصمت مطلبا وعملة نافعة في زمن الكذب والنفاق.

بمقدور الإنسان تحقيق ما هو واجب ، وتقبل الواقع، لكن بقليل من التأمل يدرك لاجدوى الانخراط في عراك غير مجد وعقيم دون أن يحصل على ما يثير ويمتع ويغمره بالشغف ... دون أن تغمره حماسة النصر لما ينتصر على ذاته، يكبت كل ما يكتنفها من غثيان جراء الشعور بعزلة الفكر وتوحد الروح. ويعود الشعور بأن الوصول للمبتغى بعيدا ما يزال! يخيل لي أن السعادة الفكرية أضمن للراحة والحميمية . يفتقد الناس الحقيقة في هذا الزمن مثل كائنات ألفت العيش في الظلمة كمساجين أفلاطون حتى أصبحوا أغبياء مثل فراشات تحترق بالنور، فعجزوا على الرؤية والعبور من باب الكهف.

ركضت تجاه الحياة، تجاه الحرية كما تمنيتها وعايشتها وحلمت بها وأنا ألتهم ما كتبه الفلاسفة والشعراء ...

ومع ذلك أشعر دائما بأنني لا أملك حرية التصرف ولا التفكير كما أريد، هناك دائما ما يرغمك على التلاؤم مع ما يريده الآخر.

arabworldbooks.com

عاب علي الكثيرون عدم تواصلي الكافي وميلي إلى العزلة والصمت ، لكن لا أحد منهم يفهم رغبتي الجامحة في الانعتاق والتحرر من تدخل أي كان في شؤوني، أريد أن أتحرر من كل التزام تافه ومنافق إرضاء لمنطق الغير.

لا أنكر أنني أحيانا تمر بي لحظات يأس وضعف، لدرجة أشعر معها بصعوبة وصف الحالة مع ما يكتنف الأمر من ضبط مخططات شخص آخر يبعثر صمتك ويصر على كشف سر عزلتك.

ولسبب ما قررت مخاطبتك ربما لأقنع نفسي بجدوى فعل شيء يشغلني عن التفكير في ما يشعرني بتفاهة الأيام.

حالة الفقر الاجتماعي التي أعيشها صارت ترعبني مثل شبح يتشح بالسواد ، فلا تغادر السيجارة أصابعي إلا نادرا...

أتصور احتراقها كقوة الزمن الذي يدمر ما لا يتصور.

" إن الوقت "ليس حقيقيا"، وهو "بناء" إنساني للمساعدة على التفريق بين الزمن الحالي وإدراكنا للماضي." هكذا تقول أحدث النظريات الفيزيائية بخصوص الزمن.

وشعورنا به تحكمه عدة اعتبارات كالسن والانشغال بإنجاز عمل ما... لكن أن ترغب به ثابتا وتهتز لما ينحته من تغيرات في الأشياء والناس فهو أمر يجعلك في مواجهة الذاكرة والتاريخ. والمسألة كلها تتلخص في حيل لغة وألفاظ نتحايل بها على حالنا للتحكم في ما مضى وما سيأتي !

arabworldbooks.com

وفي غياب الأحبة غاب التواصل والشوق للتلاقي ولم يعد لدينا ما يملأ فراغ ما نعيشه من لحظات بلا فرح غير هذه الهواتف الملعونة، بلاء نزل ليسلبنا آدميتنا، وحتى قدرتنا على الفعل والتأمل. فاخترت أن أخاطبك، للحفاظ على آدميتي أو ما تبقى منها على الأقل، العبارة ضمان اتصال وتواصل، وبفضلها تشكل بلاغة الكلام بيننا جسرا وجدانيا وتواصلا فكريا يملأ ثنايا الروح وتجاويفها ويرمم ما تلاشى بين أحضان الذاكرة.

لعلك تذكر ما كان يدور بيننا من أحاديث ، كان النقاش يحتد أحيانا وتكاد القطيعة تحل بيننا لتهدم صداقة ممتدة من الماضي، ولأن ماهيتنا محكومة بالميل للتواصل كنا نعود لعهدنا ونمارس طقوسنا بعد قراءة مقال أو كتاب...

بالرغم مما يغمرنا من إنهاك فكري، كنا نواصل بلا كلل، نستقصي مجاهيل الوجود والإنسان، بوعينا كنا نخال كل شيء غير مستعص على سحر اللغة والإدراك، تلك قوة كانت تدفعنا دوما للمزيد من شغب النقاش والمجادلة.

أي شغف كان يحركنا للكلام حول كل الأشياء، نعزف بكل ما قيض لنا استغلاله لفك طلاسم الحياة وبلاغة الأشياء.

الآن أتذكر أننا كلما انزوينا وحدنا في مكان مظلم كنا نرى أمامنا شاشة بيضاء ولعله قماش أبيض مضاء فنتسمر في مكاننا في انتظار ما سينكعس عليه.

هذه العادة صاحبتنا منذ الطفولة، كنا نقيس مدى تأثير غيابنا على الجميع بالاختباء والبعد عن الضوضاء، ونستمتع بمشاهدة ما يعرض على الشاشة

arabworldbooks.com

البيضاء، نعم.. كانت بيضاء لعلك تذكر ذلك يا صديقي، شاهدنا البحر والطير والجبل وملعب كرة القدم والجامع الذي كنا نحفظ فيه القرآن ومدرسة الحي وحتى شكلنا المستقبلي..

كل شيء كنا نعيد تركيبه وفق ما نشاء، نريد أن نرى كل الناس سواسية، لا اختلاف بينهم على الإطلاق، ألسنا بحاجة لكل شيء كي نحيا؟ يؤلمنا رؤية الجهل والفقر والضعف والبشاعة ...

كنا نريد كل شيء كاملا غير منقوص هذا هو المفروض من الوجود، هو أفضل وأكمل من لاشيء، فكانت الشاشة البيضاء دوما هي الملاذ...

ربما كان ذلك هو ما برر دهشتي وخفقان قلبي أول مرة لحظة الدخول إلى قاعة السينما، كنت أنظر حولي كالأبله مبهورا بمساحة القاعة الفسيحة والأضواء والكراسي وخصوصا حجم الشاشة البيضاء، ومنذ ذلك الحين أصبحنا مدمنين على مشاهدة صور الممثلين بمدخل قاعات سينما الريف وسينما أ ب س ...ومارسنا لعبة مساعدة زبناء سوق "الهديم" وحمل أغراضهم إلى السيارات مقابل درهمين أو ثلاث وبعدما يكتمل ثمن بطاقة الدخول، نتوجه إلى السينما لنواجه شاشاتها البيضاء مبهورين بأفلام رعاة البقر والأفلام الهندية على وجه الخصوص ..

كانت العزلة تتيح إمكانية إعادة ترتيب الأشياء برؤية أخرى، أملا في تشكيلها كاملة غير منقوصة، نختبىء متى قلقنا من أمر أو كنا خائفين من عقاب الوالدين، لكن الشاشة البيضاء تعيد تصويرهما كما نريد نحن، ودودين غير عابسين، تماما مثل وجه الجدة لالة مينة ذات العينين اللتين لم تفرغا قط

arabworldbooks.com

من أمواج العطف والحنان على مدى العمر بأسره، لها وحدها كنا نستجيب متى لاحظت غيابنا، فنخرج من مخبئنا إلى حضنها.بينما كنا نستمتع بتعذيب الآخرين بالصمت، وتزيد سعادتنا بقدر ما يزداد قلقهم على غيابنا.

كنا نتصور أننا سنبقى صغارا على الدوام، وأن كل شيء سيبقى ثابتا بلا تغيير، فهل الأفضل هو عدم الاهتمام بكل ما كان عابرا غير ثابت؟ ولكن أليست النباتات والأزهار جميلة رغم ذبولها وبدونها تفقد التربة جمالها وحياتها.

نقوم صباحا نفطر بالمسمن المدهون بالسمن والعسل، نتأبط اللوحة ونقصد باب المسجد، نخلع نعالنا تحت مراقبة الفقيه ونبدأ في تلاوة القرآن بمجرد جلوسه.

يتشبع صدرنا بما تلوناه من آيات وما نالته مناطق من أجسادنا من سياط الفقيه الثخين. يذكرنا بمن نسي أداء "لاربعية" بضربة على الرأس ونخرج مهرولين، نندفع في الطرقات المتربة، نقطف الفواكه من الأشجار، نتبول في جنبات الطريق وكل منا يتباهى بقذف بوله أبعد من الآخرين...

نتشابه في كل شيء، جلباب متسخ وبلغة مثقوبة وسراويل بلا شكل محدد نربطها بحزام من الخيط أو الكتان وأحيانا بسلك معدني، المهم هو أن نستر العورة ...

لم نكن نعلم شيئا عن نظافة البدن، اللهم غسل الأيدي قبل الأكل وبعده وما تبقى يغسل في النهر أو الساقية. ولم نكن نعرف طريق الحمام إلا في الأعياد

.

arabworldbooks.com

كنا نستمتع ببهجة، العيد نصف درهم أو أكثر قليلا كان يملأ جيوبنا المعتادة على الفراغ بالحلوى والحمص وجبان كولو بان، هل تذكر مذاقه يا صديقي يا لروعة انتظار القطعة، ونحن متحلقين حول صاحب القصبة الغليظة وهو يقطع بالسكين أجزاء لا تمييز فيها بين عشرة وعشرين سنتيما، المتعة في المذاق يا صاحبي ...

في صغري كنت أعشق الجري حتى داخل البيت الكبير، ولكثرة انغماسي في الجري واندماجي مع القصبة التي أركبها كنت أسقط كثيرا في الطرق المنبسطة والوعرة في ساقية أو حفرة... واستمر الجري وراء المعاني في كبري حتى سقطت في بحر الكلام. تأسرني الكلمات وتلتف حول خلايا دماغي فلا أفلت من قبضتها إلا وأنا أسبح في سحابة دخان سجائري. فهل ابتليت بداء التشكي؟ لم يعد هناك مبرر للقول " بأن الدنيا تُعطيك ظهرها" لأنك "ربما أنت تجلس بالعكس" كما صور ذلك شكسبير بدقة كبرى.

.لقد حصل أمر ما صار يبث في ذهني القلق، كيف لي أن أمسك الأشياء لتبقى ثابتة بلا تحول ولا تغيير؟ كم مرة اندهشنا لذبول شجرة وانفجار بركان، وتساءلنا عن السر في ما غزا شعر الوالد من بياض؟ وما كان يجعل الجدة لالة مينة دائمة الشكوى والأنين؟

هنالك آلام تقوي النفس، وبالمقابل هنالك آلام تسبب لها الذبول، يخيل لي أن الرعود والأمطار تمنح الأشجار القوة والحياة بنفس قدر ما تلحق بها من دمار، إسقاط الأوراق وكسر الأغصان، لكنها تستمد من داخلها قوة لتجدد أغصانها وأوراقها.هي صورة تدعو للتأمل بالتأكيد.

arabworldbooks.com

لحسن الحظ أن الجو هذا اليوم رائع والشمس دافئة وإلا كنت سأهوي في كآبتي المزمنة.

كنت أجلس في بلكونتي كل يوم وأظل هناك ساكنا لساعات، أتأمل المارة وأسراب الطيور تحلق عاليا في السماء، أتجاوز كل ذلك ليستقر نظري على مساحة خضراء تكسوها الأشجار، هكذا تكون الطبيعة جميلة فاتنة وساحرة خاطبت نفسي، لكنها أيضا تحفز العقل والتأمل، وكنت أتساءل:

من أكون؟

لا أود من طرح هذا السؤال المهم البحث عن مبررات، كما يفعل الكثيرون، لتشكيل مرارة الوضع الذي أعيشه. بل لأكتشف ما يجمعني بكل الناس ولكي أعلن بكل وضوح :

أنا مجرد إنسان عادي ! وما داعب خيالي في فترة ما بكوني متفردا كان مجرد وهم وهراء.

ككل الناس أنا مثل عبد الرحمان الذي مات باستحياء ودون إيذاء باقي الناس، أود أن أنال ميتة هادئة، صامتة لا تؤلم أحدا.

في لحظة ما تهجم علي مشاعر التباس ويأس خصوصا بعد أن أصبحت مدمنا على طرح أسئلتي الحارقة، كيف لكل الغائبين أن يكون لهم كل هذا القدر من الحضور.

لم يكن لدي من خيار غير البرودة الصامتة الساخرة إزاء ما يحصل كأسلوب لتفتيت مرارة الشعور بالوحدة وغياب الآخرين.

arabworldbooks.com

صارت قراءاتي مبعثرة وفوضوية؛ كأن الكتب هي التي تجرني لقراءتها، أقرأ دون نية إتمام أي شيء بضع صفحات أحيانا، وأحيانا أخرى قد أقرأ نصف الكتاب، أو حتى فصله الأول أو بعض الصفحات القليلة ...

ولا أدري أي القراء أنا من الذين ذكرهم محمد بن عبد الجبار النفري:

".. القراء ثلاثة فقارئ عرف الكل، وقارئ عرف النصف، وقارئ عرف الدرس..."

لا أذكر أنني أتممت قراءة شيء في المدة الأخيرة، ولا مجال لكي أتصور أنني بلغت معرفة الكل أو النصف ولا حتى قدر قطمير. كل شيء صار مملا باعثا على الحنق... لوهلة خيل لي أن سبب ذلك هو افتقادي لضغط الواجب و متعة الإبحار بين ثنايا النصوص واستنطاقها كما كنت في الماضي...

وقد حصل ذلك مع قصيدة الصديق المحمودي لما سألني بالتليفون عن رأيي في آخر قصيدة نشرها بإحدى الجرائد:

هناك ما يؤذي

هذا هو عنوان القصيدة :

لا أحد معك،

arabworldbooks.com

وفي كل طريق
هناك ما يؤذي
هناك نقط حذف بالأسود!
وهناك بقايا ضوء
يبدو أنه كان بلا مضمون
لا يصح أن تتكلم هنا
عن فراشات،
ولا عن أناقة
لا تعنيك في شيء؛
الأحرى أن تتكلم
عمن سيعد لموتك،
عن ليال
مرت بأخطاء
لم تتمكن من أن
تنسى
حجمها.
لا أحد معك،
فإلى أين ستذهب
وهناك ما يؤذي،
هناك، فقط، حجر

arabworldbooks.com

سبق لغيرك
أن تحسس أطرافه
دون جدوى.

(شاعر مغربي)

- لن أناقش معمار القصيدة وأدواتها الفنية، لكنني أقول لك بصدق، لقد ترجمت مشاعر تعتمل في داخلي هناك ما يؤذي كل يوم. وحجم الأذى يتزايد بشكل مخيف.

ولا طاقة لي للخوض في المسائل النظرية.صدقت يا صديقي هناك ما يؤذي. وأنت تعلم بأننا " لا نهجم فقط من أجل إيذاء الغير، ولكن من الممكن كذلك من أجل متعتنا الوحيدة للوعي بقوتنا."

هكذا قال الفيلسوف صاحب الشارب المستفز.

يرعبني ما أسمع عن جرائم الخطف والقتل، والخصام في الأسواق والمقاهي وكمية الكلام البذيء الذي يتفوه به الناس، صغارا وكبارا، لقد اتسعت مساحة العنف والأذى بين الأفراد، هناك ما يؤذي في كل مكان وكم كنت صادقا حين التقطت ذلك عبر هذه القصيدة الجميلة.

لاشك أن في كل منا زاوية مضيئة وأخرى مظلمة واختلاف الناس محكوم بقدر اتساع إحداها وامتلاكها مساحة أكبر من الأخرى.

لا تحاول أن تدفعني للنقاش، قصيدتك جميلة ولن أزيد شيئا على ما ذكرت.

arabworldbooks.com

ضحك المحمودي ولمست من نبرته وتلعثم لسانه أنه يعيش حالة سكر طافح، فاقتنصت تلك الحالة لأقطع المكالمة مع وعد بمتابعة النقاش لما يصحو من حالة السكر.

لأنه من البديهي أن الدخول " في العلوم، (يجعلك) عابراً: إنما هي طريقٌ من طرقاتك فلا تقف فيه، فيأتيك الذين بنوا فيه، فيغروك بمنازلهم التي بنوها فيه"

كما نبهنا شيخنا النفري نفعنا الله ببركته.

كثيرا ما تساءلت ، ماذا عساني أحقق في عالم أخشاه وأرتعب كل يوم مما يخبئه لي من مفاجآت، هل تعلم أنني إلى اليوم لا أعرف ماذا أريد، ولا ما جئت من أجله!

على هذا النحو وفي العديد من المناسبات يحضر مارد اللاأدرية ليغمر الذات يأسا !

مثل الكثيرين كنت منقادا لما يريده مني الناس، لما يجب أن أكون وما يجب ان أصبح عليه خضعت وسرت على الطريق منحني الرأس.

أنا إنسان ولست أي شخص هكذا يجب أن يعتبرني من يعرفني. أشعر بأنني لست أنا حين أسمع اسما نمطيا.

أفقد هويتي وكينونتي لا أريد أن أكون كالآخرين؛ كأنهم فاقدون للحياة ويعانون العطش والجوع بلا باطن ولا رؤوس؛ أعشق كل ما كان ممتلئا قابلا للامتداد وكل الجزئيات والأشياء الصغيرة التي تكون الكل .

أهيم في ما كان ممتلئا بالسعادة وما كان ناعما مستديرا دافئا كوسادة الاحلام.

arabworldbooks.com

أحب النجوم المضيئة فوق هامتي التي تجعلني أشعر أن السماء قريبة وبعيدة في نفس الآن. وأنني أسبح فوق بحر من تراب ..كما أحب أن أصدق بانني متى دعوت الله من أعماقي بكل خشوع ستتحقق كل المعجزات.

أحلم وأحب أن أحلم بالضياء تكسو السماء عساها تصبح شاشة للعالم كما نريده . أحلم بنور النجوم يقودني الى عالم جديد.

أجرؤ على الحلم بأن كل شيء سيكون جميلا وكل الرؤوس مليئة بالمعاني والوجوه تعلوها بسمات متبادلة مثل ندى الصباحات الماطرة.

أحلم أن يكون كل الناس مختلفين وأن يحمل الجميع اسما واحدا.. .

أنا إنسان يشرب ماء العين ويتطلع للأعالي وينام فوق العشب ليتفرس عظمة السماء ويترقب يوما جديدا وشمسا تحيي الأمل وقلبا مفعما بالحب والعشق والجنون. لكن " الحياة الحقيقية غائبة " لا أذكر اسم القائل ولا تعاتبني إن كنت أنسى أسماء الأشخاص، أنت تعلم أنها مشكلة مزمنة عندي، فاختزلت الكل في شخص واحد هو أنت الذي هو أنا وهذا يعفيني من الانشغال بمشكلة مزيفة هي أسماء الناس، دعنا من ذلك الآن !

أعلم أن النسيان مثل الثلمة في قطعة أثرية لا تقلل من قيمتها، وربما تثبت أصالتها وتنمي الرغبة في امتلاكها. لكن يا صديقي نظرتي للأشياء مختلفة عن نظرتك لها، وليست لدينا نفس المعايير. ولكن هل نمتلك قدرا من صفاء الذهن الذي يؤهلنا للتمازج وإمساك الحقيقة بالعقل كان ذلك أم بالقلب.

وكم صارت مؤلمة لدرجة نحتاج معها لنفخ الكلمات لحد الانفجار، كلمات لم يعد بوسعها تحمل رائحة الدم والموت...

arabworldbooks.com

دعني أقول مع سيوران :
أحْلُمُ بلُغةٍ تُحطِّم بالكَلِماتِ كما تُحَطَّمُ الوجُوهُ باللَّكَماتِ.
فما السبيل للامساك بالمعنى في هذا الضباب؟ ضباب يغمر ردهات العقل ويعمق الشعور بالجهل. فلا أملك غير الاعتراف بأنني لا أعرف.!
فتحت عيني هذا الصباح وتأملت الغربان تحلق عاليا، لا أدري لم لا أحب أصوات هذه الطيور ....
لا تحدد لنفسك وجهة معينة، حدثت نفسي، عليك فقط بأن تسير إلى الأمام، لا تحاول أن تنكأ الجراح والعودة إلى ما مضى، حاول فقط أن تجد نفسك بعد التيه.
تذكرت جدتي لالة مينة حين كانت تكفكف دموعي:
لا تشكو للناس ألم الجرح ولا تبك يا ولدي لديك معدن الرجال، تحمل ألمك وابلعه. كنت أصدقها وأنسى ألمي بل أضحك أيضا لأقنعها وربما أقنع نفسي كذلك برجولتي المبكرة.
الأمر كله مختصر في الغياب، غياب الأشياء والطمأنينة ودعامات المبنى والمرتقب من الغد، في مقابل حضور فاتر مؤقت ..
لا فائدة من الحضور إلا بالغياب، ولما غاب والدي فترة في "الحدود" كان غيابه قاسيا وعانينا من غياب الضوء والخبز والحليب.
في صباحات تطوان الباردة بباب النوادر، كانت والدتي تحملني قدرا من الألمنيوم وكيسا من الثوب وكنت أسرع لأخذ موقعي في الصف في انتظار وصول شاحنة الجيش المحملة بالخبز الساخن والحليب، سابقا كان دخول

arabworldbooks.com

والدي لحظة احتفاء بما يجلبه من فواكه وخضر ولحوم وملابس، لحظة الوقوف في الطابور كان يغمرني شعور فضيع بالضياع وثقل الغياب مثل الغريق تتقاذفه أمواج المحيط...
بدا لي أن العالم قد انقلب على رأسه، مثل أرض تنتظر الغيث وكأنني فقدت طرفا من جسدي، لم يعد يغمرني شعور بالاكتمال في غياب الوالد. منذ تلك اللحظة أدركت أن الغياب كان وما يزال مقياسا لضبط قوة الغائبين.
بالليل كنا نشعر بالبيت مهجورا بشكل أكبر في غيابه، نتحلق حول شمعة نحن الستة، عملية نسميها "الفرفارة "متمددين على البطون لحفظ الدروس تحت مراقبة الوالدة وبيدها عصا لضبط المتهاون منا في الحفظ بصوت مرتفع. بعدها نتحلق لسماع حكايا الجدة لالة مينة. عن سيدنا علي ورأس الغول، وسيرة سيف بن ذي يزن، وعنترة بن شداد، وحكايات ألف ليلة وليلة...
وبالرغم مما نجنيه من تسلية ونحن غائبون في سماء الخيال، يظل الشعور بالفقد رابضا على تخوم المحتمل والآتي . أقلق مما يروى عن الحرب ، تتعمق وحدتي وأخال ذاتي مبعثرة وذهني طائرا في فضاء ما يروى، وفي معزلي يتنامى شعوري بالألم والخوف. دع الأمور تسيرعلى هواها قلت لي حينها، لا تفكر في الأمر أكثر من اللزوم وقد حاولت بالفعل مرارا وتكرارا، لم أنس كل شيء بل دفنته في ثنايا ذاكرة مترعة بالغضب والرهبة والقلق المزمن...

arabworldbooks.com

ومرت أيام وجاءت أيام كما يقول الحاكي بمفاجآتها وقسوتها، بمآسيها وتغيراتها ..
مغرقا في تفكيري، مثقلا بركام من المشاعر، وددت أن أجثو على ركبتاي وأصيح، أن أحضن رأسي بين كفاي عساني أوقف سيل الذكريات التي تملأ ذاكرتي.. كنت أرغب في أن يدوي صراخي في أرجاء العالم حتى أتخفف من طعم المرارة التي تنبعث من روحي ومسام جسدي، لأنعم ولو لليلة بطعم نوم هادىء وتسعى إلي أحلام تسلي فكري عما يشغله على مدار الساعات.
منذ قليل لما نظرت إلى المرآة، أفزعني الوجه الذي رأيت لحية كثيفة تخطها شعيرات بيضاء تكاثرت بشكل مفاجىء، حول العينين هالات سوداء وجفنان متهدِّلان مع بعض الهزال ، لو جدتي ما تزال على قيد الحياة كانت ستقلق بالتأكيد وتظهر على محياها علامات جزع...
يخيم على الفؤاد سأم من كل شيء عابر أو من رؤية فعل فاجر ، كل شيء يبدو مصطنعا مزيفا فاقدا لعفويته وتلقائيته، صار الكذب والنفاق مشاعا بشكل فظيع فهل يمكن للحقيقة أن تدوم في سياق ما قاله غاندي : «في غمرة الموت تستمر الحياة.. في غمرة الكذب تستمر الحقيقة.. في غمرة الظلام يستمر الضوء». لم تعد الأشياء بذات الوضوح بعد غياب من معهم وبهم كنت أرى نفسي! وأحدد لها موقعا في العالم...

arabworldbooks.com

دفء الشمس الذي غمر ظهري، جعلني أشعر بحياة الأشياء وبعث في ذهني شعورا بالأمل وكأن باقي الأمور يحركها مبدأ الانبعاث إلا عقلي الباطن الذي ألف وضعية غضب أنطولوجي مزمن ..

حتى شلومو قال لي لما أتيحت لنا فيها فرصة اللقاء أنت لا تتغير... مخلصا ما تزال لأسلوبك في السخرية وتجاهل ما يبث الخوف في باقي الناس. السخرية سليلة مأساة نحياها لما ندرك عبثية الحياة قلت له...

فماذا عسى هذا الواقع أن يثير في الذات من شغف، حينما نعي أننا محكومون بمواجهة الموت وكأنها غنيمة خاصة لا يشاركنا فيها أحد؟!

لحظة العشق وسحر الكلام

وفي عز كآبتي حضرت إلى ذهني أبيات لقيس بن الملوح:

أَنيري مَكانَ البَدرِ إِن أَفَلَ البَدرُ

arabworldbooks.com

وَقومي مَقامَ الشَمسِ ما اِستَأخَرَ الفَجرُ
فَفيكِ مِنَ الشَمسِ المُنيرَةِ ضَوءُها
وَلَيسَ لَها مِنكِ التَبَسُّمُ وَالثَغرُ
بَلى لَكِ نورُ الشَمسِ وَالبَدرُ كُلُّهُ
وَلا حَمَلَت عَينَيكِ شَمسٌ وَلا بَدرُ

تذكرت الأبيات في خضم رحلتي إلى ماض ليته يعود. تذكرت كيف منحتني الطبيعة في فترة ما شاربا وعضلات، وافتتنت مثل كل من كانوا في سني بأجساد النساء لا أريد اختزال المرأة في جسد جميل أو كما يحلو للبعض عندنا حين يسميهن بالثريات...

المرأة عندي وجود وحرية وسحر وجمال، أعشقها حرة مستقلة، ربما لهذا السبب تقل جاذبيتها عندي مع الزواج، لأنها تفقد فيه مابه يكتمل وجودها وما يمنحها قوة تنافس الرجل.

كما أن الرجل يكبر في عيون النساء بقدر ندرة نوعيته، وشلالات الشغف التي يحملها في قلبه، ميزة تجعله متفردا وكأنه يحمل نياشين جنرال في الجيش.

والآن بالذات بعد أن حصل لي ما كنت به مستهينا، لم أعد مهتما لا بالتميز ولا بالتفرد، بل بعيني فاتنة سحرتني بنظراتها مع أنني كنت تحت تأثير جنون الحياة ، كسرت توازني واستمرت في طريقها.

arabworldbooks.com

فماذا أحكي؟ وعمَّ بقي أن أحكي؟ لم يعد لي مهرب بعد أن صرت ضحية لوخز العشق والالتباس، أدركت أنني لها صرت أسيرا وأنها لن تعتقني للبحث عن وجهة ثانية...

في عينيها شيء ناطق لا يقبل الوصف كأنه انتظار أو نداء، شغف وحنين ناعم كبسمة طفل...

تغري بفتنة تغمرك قليلا قليلا مثل دفء مياه في ليلة ليلاء، تتسرب عبر خلاياك إلى الأعماق فتغمض عينيك لتستمتع بها أكثر فأكثر. لم يكن سحرها نابعا من انسجام أجزاء جسمها ولا من التماع عينيها فقط بل من انسجام رائع بين كل ما تراه فيها لدرجة تتصور معها أن كل شيء جاء كما يجب أن يكون بما في ذلك صوتها المتناغم مع ما تعبر عنه بعينيها، والابتسامة مثلما كنت تتمنى أن ترتسم فوق شفتيها، لها وميض كبهاء النجوم يسرقك من كل الأضواء نحو نور هاديء يبث في النفس الدفينة حرارة الحياة...

هكذا رأيتها يا صديقي وأنا في الرباط، حدث ذلك في إحدى صباحات شهر ماي لما عدت إلى شقتي هناك، بعد أن قهرتني الحرارة والرتابة في مكناس ...

ركبت سيارتي لأقوم بجولة عبر الكورنيش ، لم يكن لدي برنامج محدد، لأنني تعودت أن لا ألزم نفسي بشيء بعد مغادرتي للوظيفة حتى أتحرر من كل القيود وأتفرغ لما كنت أعشقه منذ زمان.

وفي لحظة بأحد المنعرجات رأيتها والتقطت من عينيها تلك النظرة التي لفت كياني بأغلال لا تنكسر.

arabworldbooks.com

عيناها فيهما سحر وجمال، نظراتها تكاد تنطق بما يغمرها من مشاعر العشق والاستسلام والشكوى، تحفز للكلام، تفرست أعماقي مليا كما لو كانت تسعى لفتح عالمها الباطن لأدخل وأستريح، خلتها تدرك ما يمنعني من الاقتراب، لديها مزيج من القوة والشغف والعفة، ربما مثل مدام بوفاري ! أو هكذا خيل لي.

ولكن ما لي أكاد أتذوق رقة حنانها وكأنه عسل تتشربه تجاويف القلب. وكم مرة تخيلتها ستكلمني ، لا أعلم هل أخبرتك بأنها لا تولي بالا لنظرات الرجال الجائلة عبر تضاريس جسدها المشتهى، غير عابئة تمر وسط الناس، وهي غارقة في مكالمات لا تنتهي. لا تسخر مما أقول! فقد فات عهد كنا نمزح فيه عند الحديث عن الحب.

**** ********** ****

أود أن أرسمها وأكتب عنها ولها غزلا وشعرا لكنني لم أجرؤ، خوفا من الغرق أكثر، فعم ستغنيني الكتابة، والتواصل معها غير قائم من الأساس.؟ صفاء - هكذا أردت أن أسميها- صارت تشغل بالي بالفعل، يخيل لي أنني ما جئت لهذا المكان إلا من أجلها، أو على الأصح من أجل عينيها.

اللامبالاة جريمةٌ ضد الحياة و ضد المعاناة هكذا تحدث الفيلسوف الذي على بالك..وصفاء كانت بالفعل لامبالية بشكل قاس...

arabworldbooks.com

كنت أتابعها بنظراتي غير عابيء بشيء. لم أجد سبيلا للفهم ، صدقني أنها لغز محير، لا أستطيع أن أشرح لك لأنني أجهل عنها الكثير.
فيم كانت تفكر؟ ومتى كانت تفعل ذلك؟
تغمرها حالة ذهول ربما مصدره غياب ما يشغل أوقاتها وما يمكن أن يتأثر به أسلوب وجودها. أحيانا تراها مستكينة لنظام العادة مستسلمة حائرة، وأحيانا أخرى تمر واثقة الخطى وهي تسير نحو مكان ما.
وكل مرة أتوقع فرصة للقائها ومحاورتها يحدث ما يعوق المراد ويؤجل المأمول.
ليس من عادتي أن يستعصي علي التواصل مع امرأة، لكنني أعترف أنني أعيش هذه المرة مأزقا حقيقيا. يزداد الالتباس مع كل خطوة من خطواتها وكل نظرة من عينيها الخضراوين.
فالمرأة خلقت لأجل من يعشقها لا من أجل من يفهمها، هكذا قال أوسكار وايلد فيما أذكر. لكن ما فائدة هذا العشق بلا وصال؟ أعيش حالة ارتباك أمام ما أثارته في ذهني هذه الفاتنة من غموض والتباس.
أخالك تخاطبني بسخريتك المعتادة قائلا:
- لعلك تعيش وضعا هرمونيا
الليلة دخول أيام تزهر فيها الإناث مثلما يزهر الشجر وينتشر اللقاح .
وأجيبك غاضبا :
- لعلك تنشد سخطي وتهفو للتقصير في حقي، قلت غاضبا... دعني رعاك الله أكمل حديثي عن التي ملكت القلب، فمن عادة الكلام أن

arabworldbooks.com

ينفلت ويتيه عن مقاصده مثلما يخرج ماء الجدول عن مجراه، ومع ذلك فهو وسيلة للتفريج عن النفس، ولن أستنجد بحجة أو برهان كي أقنعك بصدق هواي، فتدبر قولي وحاول العبور من ظاهره إلى محتواه فحسبي أن تستبين حالي ولست جبانا لأعلن ولهي وعشقي، ولست أروم التهرب من متابعة الحكاية، بل عسى أن تكون قصتي ملحها ومجراها.

فالجمال مصدر سعادة ولعلك تذكر صاحبتي الصفريوية التي كانت تفرج عني الكرب وتبث في القلب منتهى السعادة.

طبعا أعلم أنك ما تزال تأسف لنهاية العلاقة معها دون أن تتوج بالزواج، تذكر معي تلك الأيام، " آه يا زمان " لم أصادف بعدها أنثى تسعدني وتسعى لإمتاعي مثلها، لباسها كان فيه إبداع ودلال، كانت تمتع الناظر بجمالها وأنوثتها الوقحة لكنها تربكه حالما تنظر إليه، وما بالك حينما تراها هادئة، لعاشقها ناظرة وهي جالسة فوق فراش وثير.

تجلس بهدوء، وهي تنظر إليك، نظرتها الحقيقية، الأجمل بالتأكيد، لما يسترعي انتباهها شيء تحبه، تطيل النظر صامتة، كأنها تمنحك بهجة وعطاء وسعادة.

جمالها يثير الشغف وغيرة النساء، جمال له سر تحفظه بعناية، يجعل الرجال تحت رحمتها في كل الأحوال، رغم ما كان يبدو عليها من صرامة.

صفاء تشبهها قليلا، والمشكلة هي أنني لا أعرف عنها شيئا عدا جمال عينيها، أخالها جامحة مثل الصفريوية، ربما كان انشغالي بها مجرد

arabworldbooks.com

نوستالجيا لأيام جمعتني بتلك الجميلة الرائعة وربما هو بحث عن زمن ضائع.
أذكر ليلة الفراق بحيرة وربما ببعض الندم، بعد أن لمست لدي بعض الحنق من مناقشة فكرة الزواج:
إما الزواج أو النهاية هكذا قالتها مصحوبة بنغمة يأس، c'est fini.
بعدها عشت أياما باهتة في الرباط، أحسست بضغط الفراغ وطعم الغياب مرة أخرى.
مؤلمة هي تلك الذكريات التي تطفو للذهن تؤنبك عن عدم أخذ العبرة بعد نسيان ....
وكانت وجهتي مرة أخرى هي العزلة والجلوس أمام شاشة التوقعات، أركب ما سيحدث بيني وبين صفاء. يغمرني شعور كالغصة متى غابت للحظة أو لأيام ويعود البشر لروحي متى مر بالذهن طيفها وخضرة عينيها.
لا أخفيك يا صديقي أنني عشقتها بصدق، أحببت براءة نظرتها، وطهر بشرتها، وبراءة نظرتها، وثبات حركاتها حتى استبد بي شعور غامر بقرب الانعتاق من الكآبة والغوص في ماء الحياة وضياء الفرح، وأغمض عيناي لأمسك بشلال الأحلام التي اجتاحتني، ذاهلا في دنيا الدفء والحسن والجمال.
عسى أن يكون في الحلم راحة للعقل، وفي العشق راحة لجسدي المتعب .
وبلسان نزار قباني كنت أردد:
(مادمت لي/ فحدود الشمس مملكتي/ والبر/ والبحر/ والشطآن/ والجزر)..

arabworldbooks.com

اضطررت للسفر لبعض الوقت ولم أعد أبصر في كل امرأة إلا وجهها. حتى وأنا أسوق سيارتي كنت لا أرى غيره حتى غشيتني رهبة السهو عن معالم الطريق وارتكاب حادث مميت.

المهدي صاحب المتجر لاحظ اهتمامي بها وولهي بانتظار مقدمها، لو رغبت، قال لي، بإمكاني التحري عنها إن شئت، رفضت ذلك بشكل حازم :

- ليس من شيمي التحري عن النساء

ورفضت تكسير صورة بناها خيالي فرجوته أن ينسى الموضوع ولو كان الثمن غلبة البعد على التلاقي.

لزمت الفراش أياما ببيت أخي في تارودانت بعيدا عن مسكني إثر مرض ألم بي . كالغريب كنت ببيته والحمى تلهب جسدي وبالروح أحاسيس ملتبسة كأنما انهار العالم وغرق الزمن في بئر من نار. احترت في أمري بعد أن طال أمد العلاج ما بين المصحة وبيت أخي واستسلمت ليأسي. كان شعورا بالضياع شبيها بما غشي قلبي حين ماتت جدتي وأمي وقبلهما والدي.

لم أعد أطيق الدواء لولا البسمة التي كانت تنفرج عنها أسارير بنت أخي الصغرى سناء ، كانت تبدو عليها علامات أمومة مبكرة، أبتسم لها ابتسامة استسلام فتحضنني برفق لتمد لي الدواء وكأس ماء، أدركت مع هذه الطفلة أنني أعشق الأطفال وربما لدي رغبة ملتبسة لإنجاب طفل. ولكنك، وأنا على يقين من ذلك، بحكم معرفتي الدقيقة بخبايا وتلافيف دماغك، ستقول بأنني متناقض مع اختياراتي لأن التفكير في الإنجاب تعبير لاشعوري عن الخوف

arabworldbooks.com

من الموت. لكنك لم تأخذ المتغيرات بعين الاعتبار، فالحديث عن الموت يختلف عن الشعور بأنه يحوم حولك.
وهذا الشعور ألم بي منذ وفاة المرحوم عبد الرحمان.

عدت لمكناس بعد شهر فقدت فيها من وزني الكثير، بالكاد كنت أتحمل الوقوف والنظر إلى الأفق البعيد. تمنيتها بجانبي في هذا الوقت .
بسرعة مرت أسابيع لألفي نفسي قد قضيت شهرا آخر بعيدا عن الرباط، أقضي سحابة أيامي بين المقهى والاستغراق في القراءة أو الكتابة، والنظر إلى بيتي الفارغ بعين كابية، يغمرني شعور بالوحدة في هذه المدينة مثل كائن مفقود في البحر متشبثا بقطعة خشب طافية.
تصورت أحيانا أنني موجود بغير رضاي، بل أنني أجبرت على الوجود قسرا وبلا اختيار. حدثت نفسي قائلا: هناك لحظات يأس وغضب لا تتناسب مع العقل والمنطق. هل هو وقت مناسب للكتابة؟ هل من اللائق أن نلجأ إلى الكتابة في لحظة غضب مما نعيشه وما نلحظه؟ وبالمقابل يجوز أن نتساءل هل الكتابة تقتضي هدوء النفس والمزاج الرائق؟
لا تحتاج الكتابة لأكثر من أصابع ثلاث ، تسمح بتحريك القلم والوقوف على الأفنان. يدان صغيرتان ولعلهما قدمان خفيفتان لحمل جسد هش أضناه التيه والطيران.

arabworldbooks.com

وتبقى الطيور معلقة في المابين أو المنزلة بين المنزلتين بين النقص والكمال بين القفص والفضاء الطلق بين الغموض المغلق والوضوح الساطع المبين...

كم من الزاد يستطيع أن يحصله من حكمت عليه الطبيعة بالتيه والتقاط رزقه من الحب والمعاني .مؤكد أنه ليس بالشيء الكثير وكم من الأشياء تنفلت من بين أصابعه الثلاث وهو سابح عبر ممرات ، الممكن منها والمستحيل ..تراه مراوغا ، متسربا عبر شقوق ومنافذ مثل الماء أو مقتحما كطائرة تنفث النيران أو ماء أنواء يغذي الزرع والنبات ..

يبدو كل شيء واضحا ولا يحتاج الأمر مع الكتابة بذل جهد أو بيان ، فيستلذ التقاط الحب والمعنى غير مبال، تبدو إحداها ساكنة طيعة تنتظر المنقار أو أصابعه الثلاث فإذا به يسقط صريعا جراء الاصطدام بزجاج نقي كالماء بريء كنوايا الأطفال ...

فتراهم سعداء لسقوطه يتسابقون لنتف ريشه وشيه فوق نار بين حجرين مستمتعين بتمزيق لحمه الطري اللذيذ.

ومساء يتفاخر الجميع بما نهشوا من هذا المتهورالتائه المجنون...ولهم جميعا موازين الدقيقة منها والمزيفة ...وهكذا حال ومآل الطيور الساقطة طوعا أو بالحجر .

وقد تكون نهايتها مع نسر قوي جبار ، أو رصاصة قناص في آخر النهار.

هو حال الكتابة يا صديقي مخاتلة تحرك أوتار العقل والخيال ومغرية كحسناء تنسيك عوالم القبح وتسبح معها في عالم المعاني والفتنة والجمال.

arabworldbooks.com

لا يهم إلى أين المسار ، المهم هو الكتابة حيث الفرح وهو ما كان مقدرا لنا أن نكون فلنغمض أعيننا ونطير ...
الكتابة لحظة متعة وفرح، لا يعلم طبيعتها إلا من كان بها مولعا، وفي شعابها سائرا غير مبال بما تستنزف منه من تعب ومعاناة.
وتساءلت، ما مدى إمكانية أن يصوم الإنسان عن الفرح وفتنة الكلام؟
الحياة قصيرة، ما أكثر من يقولون ذلك ولكل مقاصده ومبرراته، فهل هذا مبرر للخروج من جمال المجاز والعبارة، البلاغة سعي وراء احتواء الممكن حتى ولو كان عابرا وغير ثابت في الكون.
اخترقت شمس هذا الصباح ضباب مشاعري وظلمة أفكاري، وتصورت أن في ذلك ضربا من التشجيع على الأمل والفرح، فإذا كانت أفكارنا وكلماتنا تسقط كأوراق الشجر فإن مقدم الربيع يفتح لها منفذا للحياة.
راودتني الكتابة عساها تكون صدى لكآبتي الطاغية وشعوري بوحدة قاهرة، عساني أنشغل بكيمياء الكلمات وموسيقى الأفكار، غير أنني أظل على الدوام مفكرا في موعد عودتي للرباط، وعن مدى استعداد مالكة القلب للتفاعل مع ما حصل، فتنفلت مني حبال الأفكار وبلاغة الخيال.
ولسبب ما خيل لي أنني سأنهي أيامي وحيدا في دروب المدينة بمكناس، وكيف لي أن ألحق بالحافلة أو أسوق السيارة وأنا أعاني من وهن شديد.
فقد راودني الشعور لما كنت بتارودانت أن نهايتي أزفت هناك، فألححت على أخي كي ينقلني إلى بيتي بمكناس، ولما رغب في العودة حاول أن يطمئن على مآلي وأنا وحدي بالبيت، كتمت الألم كما علمتني جدتي،

arabworldbooks.com

وأظهرت له الكثير من الجلد لأحثه على العودة إلى زوجته وأطفاله. فلا داعي للقلق علي أكثر من اللزوم. صرفته إلى شؤونه، وفي نيتي أن أسافر إلى الرباط حالما أستعيد عافيتي أو جزءا منها على الأقل.
استعدت قولك يا صديقي وأنا في منتهى الوهن، أكاد أجن لما آل إليه حالي، لا أستطيع إكمال خمسين مترا مشيا حتى أشعر بالرغبة في الجلوس خوفا من السقوط. استعدت قولك بأن الإرادة والعزيمة مصدر للمعجزات، لكنني صرت مدركا لكون الآلام الحادة تدمر المزاج، تتوالى الأيام رتيبة مملة في انتظار الخلاص، يفاجئني إدراك اللامرئي أخرج للجلوس في بلكونتي وحدي متأملا أحداث العمر. قرأت أمس عبارة فتحت أمامي أبواب السأم :
" الحياة قصيرة ومتعها لا تستحق حتى الرغبة فيها"
هل من المنطقي رفض ما ليس ثابتا ودائما؟ وأمني النفس بالأفضل متشبثا بخيط نور يمزق ظلمة الآتي ولو بالاحتراق في تجاويف نار تحرق الأمل في خيط حياة. في غرفتي تختنق أغنيات لغد بات ملتبسا كغور سحيق. لم يسعفني ذكائي لفهم لغز هذه المرأة، يبدو لي أنني أرغب فيها بجنون ومن عمق كياني بأكمله. كنت أراها صحبة أخريات وفي الغالب وحدها في كامل أناقتها متحدية نظرات الرجال .
ثقتها الكبيرة بنفسها كانت تجعل المنتشي بجمالها يشعر بالدوخة وانعدام التوازن، لم تكن على بينة من أن نظرتها الغائبة أحيانا لا تنسجم مع باقي تقاسيمها ، الهادئة والمتوازنة. بل إن تلك النظرات كانت تسيء لجمالها أكثر

arabworldbooks.com

مما تفيده. ولم تكن أنوثتها الصارخة تعيق انبثاق ذكائها الذي ينطلق كتيار من نظراتها الثاقبة.
نظرات بقيت عالقة بذهني .
سر غامض يشدني إليها، حاولت اختراق ما كان غامضا غير مفهوم، لكن بلا جدوى.
يحدث كثيرا أننا نسيء تقدير الأشياء وأن نتسرع في إصدار الحكم على المظاهر.
ما أقسى المدار الذي يجب قطعه للعودة إلى ذواتنا! فكيف سيكون مسار اللقاء بوجه يظهر ويختفي أياما. فليكن ما يكون، ما باليد حيلة ولا فائدة من عالم لا يشرق بها ولا يغرب في غور عينيها، هاهي قد صارت عالمك
الذي تريد أن تفنى فيه وتموت بعيدا عن عبثية الحياة. أليس "الحب موتا صغيرا " كما قال ابن عربي، لا يهم أن يكون صغيرا أم كبيرا وحتى نهائيا، المهم أن تفنى في بحر عينيها وليكن ما يكون.
وهامت بي خيالاتي في فضاءات هادئة تستقر فيها الروح وتبرأ من آلام الأوهام التي اجتاحتها على مدى العمر. فقد أدرك جزءا ممّن أعشقها صافية لما ينبجس طيفها خاليا من المساحيق عساني أملك الصبر والمكابدة.
جو مكناس رمادي كئيب وهذا يتناسب مع حالتي الذهنية والصحية.أود أن أقتنص إيقاع العادة بحكم ما تحققه من هدوء هذا أمر محمود .
يخيل لي أحيانا أنني مجرد شخص مختف، بل أكاد أتصور أن شخصا ما يبحث عني، ربما تكون أنت، لكن دون أن يجدني ...

arabworldbooks.com

يبدو كما لو أنه في لحظة ما في الطريق، فقدت ذاكرتي، ربما أكون قد عشت حياة أخرى في مكان وزمن ما..!
يستعصي علي تذكر العديد من الأشياء، وكلما حاولت العودة للوراء تزداد قناعتي بأنني من زمن آخر، وأتساءل عم ينقصني أو عما افتقدته، ولكي أصدقك القول كما أفعل دائما ... أنا ضائع يا صديقي ولا أعتقد أنني امتلكت حياة تستحق أن تسمى حياة بالمعنى الذي كنت أتصوره.
بينما كنت متجولا في فضاء أفكاري في انتظار انفراج للحال مع من صارت عالمي واقتحمت ثنايا ذهني؛ بدأت أقلب الموضوع من كل الزوايا، بسبب ما اعتراني من خوف لو أقدمت على الخطوة الأولى.
أحيانا أشعر بالحاجة لآخر، يكون حاضرا بجانبي يملأ عالم غربتي، وحينا آخر أرغب في مغادرة الحياة، قد أخلف ورائي رسالة لمن استأنس بها القلب. وساءلت نفسي بأي حق أراسل من ليست ملكي ولا حق لي عليها، فنسيت فكرة الكتابة. يكفي أن أظل ساعيا وراءها ومثابرا على عشقي وولهي بها.
إحساسي بالوهن يفاقم شعوري باليأس من كل شيء.
كلما أطلت التفكير في تفاهة الأيام ازدادت الأمور ضبابية والتباسا، يعاتبني الأقربون والأبعدون من الناس على محاولة إضفاء المعنى على كل شيء.
لا تحاول أن تضفي المعنى على كل ما تراه في الدنيا قالت لي "نادلة" مقهى الملتقى ذات مرة ، لا مجال لتدخل العقل و المنطق في كل شيء. هناك أمور تتعداه كالسحر مثلا وهو موجود، ولمجرد عدم فهمكم له، تحاربونه

arabworldbooks.com

وترفضونه . هذا عيبكم يا متعلمين لا يمكن للدنيا أن تظهر للناس بوجه واحد.
أجبتها للتو مازحا مع قليل من الاستفزاز:

- لو دعوتك للمبيت معي هذه الليلة، هل تقبلين لأجل المال أم لأنني أعجبك ؟
- للسببين معا يا سيدي، أنت رجل وسيم وأنا بحاجة للمال لتربية ابنتي.
- هنا نحن مختلفان، أنا أعتبر الجنس حرية وانجذابا حرا بين رجل وامرأة، وبذلك يحقق هدفه الأسمى وهو المتعة. أما المال فيخدش كرامة المرأة ويحولها إلى سلعة، ألا تلاحظين أن اقتران الجنس والمال يدفع الرجل لاحتقار المرأة وتعنيفها؟

أجابت باسمة:

- أحب فيك عشقك للمرأة واحترامك لها، لكن صلابة رأسك تؤذيك قبل إيذاء الآخرين.
- تعلمين أنني أحب المجيء هنا لأنني أستمتع بالكلام معك.

هزت رأسها بحركة غير مفهومة وراحت لخدمة زبون آخر.
ذكريات منسية جذبتني، استفزتني الرغبة في الكتابة من جديد. بحثت عن أقلامي وأوراقي وبدأت أكتب بهدوء، أرهقتني الكثير من التفاصيل والجزئيات وحاصرتني كثير من الذكريات . لم أعد قادرا على اختيار أي منها للكتابة؟ ولوهلة شعرت أن الوقت لم يعد يكفيني وأن الموت يترقبني ، يتوعدني، لقد أزف ميعادك، أزف ميعادك...

arabworldbooks.com

لست نادما على شيء قلت لنفسي، لا يهم ماذا سأحكي ولا حتى لمن سأحكي، لم يعد أي شيء مهما . أمام الموت تتساوى جميع الأمور، تختفي الأنانية و النفاق والغرور. هذا يجعلني أكثر راحة ، أحس أنني مجرد إنسان، إنسان عادي جدا.

في نفس اللحظة غمرني الخوف ، ارتعشت وطفقت أنظر حولي بشكل حائر، فجأة اكتسبت الأشياء أهمية جديدة، صرت أنظر في كل جنبات " العالم الأصغر" صباغتها الباهتة، أبوابها المتداعية، كأنني كنت أدعو عيني لتلقي عليها نظرة أخيرة،

الحياة بدأت تهرب بسرعة بطيئة ، يدي التي تكتب وقلم الرصاص الذي أحمله بأصابعي ومكتبي الذي يكسوه الغبار...من الممكن أن لا أرى أيا منها قريبا...

صعب أن تعتبر كائنا حيا بلا حياة، أعلم أن ذكرياتي ليس فيها غير الفراغ والتفاهة، ولكن ليس لي غيرها في زمن غير زمني وحياة لم تكن على الإطلاق تستحق أن تسمى حياة.

...

ولأنني أكاتبك ولا أوجه خطابي لقاريء مفترض، لن ألجأ لحيل الروائيين لكي أبني علاقة لا وجود لها أصلا مع هذه المرأة..

أليس"الحب مثل الفن، أكبر من مجموع أجزائه" كما ذكر أحد الأخصائيين . جميل هذا الشعور الذي يغمرنا فيصبح كل شيء جميلا وهذا يؤكد ويقوي شعوري بأنني إنسان عادي. يراودني الشعور بأنني، ضائع، تائه، مرتبك،

arabworldbooks.com

وحتى بلا هوية، لكنني لم أفقد إحساسي بالجميل والممتع. فدعني يا صديقي أقول وأكرر لست فوق الناس، بل أنا مثلهم أعيش لحظات القوة والضعف، وأحب الجمال مثل كل الناس.

ألم يقل ديكارت وأعلم أنك لست من المعجبين بأفكاره :

"الحب من الأهواء التي تولد فينا دون أن ننتبه بأي شكل من الأشكال فيما إذا كان الموضوع الذي أثاره طيبا أم خبيثا"

أليس هذا هو حالي أنا.

كالمعتاد أتوقع تعليقك استنادا لرأي يسند حجتك:

"الحب فخ يوضع للفرد بغاية إدامة النوع"

لا أطيق أفكار شوبنهاور، ولأنني أعلم أنك لست مفتونا بأفكاره تفتضح غايتك وهي المزاح ولا شيء غيره.

يا صديقي لست باحثا عن أسلوب ومسار جديد لحياتي أو كما كان يحلو لشفيق، المفتون بآراء سبونفيل، أن يقول ، هذا سعي وراء فن للعيش في زمن طغا فيه العقل والتحرر على حساب العشق والرومانسية التي يجب أن تسود العلاقات الإنسانية في هذا العصر. وعلى العموم فالتفلسف والحب ليس بينهما ود كبير، ولعل الفلاسفة كانوا يتجنبون طرحه بشكل جدي، إلا بالنسبة لأقلية ومنهم أفلاطون في حدود ما أعلم، في محاورته الجميلة، الوليمة le Banquet التي خصصها لهذا الأمر.

كل هذا مفهوم ولكن ما الذي يفسر شعوري بالضياع هنا في مكناس، بعيدا عنها دون إمكانية رؤيتها بعد أن هدني الداء الغريب الذي ألم بي.

arabworldbooks.com

دعني أقول لك أن الحب هو واحد من متاريس الاحتماء التي نلجأ إليها متى انبجست فكرة الموت مهددة كينونة الذات.
الحب يا صديقي ظاهرة فريدة تجمع بين البساطة والتعقيد بين كيمياء الجسد وفيزياء الدماغ، وليس بإمكاني في هذه اللحظة الإدلاء برأي موضوعي حول هذا الأمر. لو كنت سألتني قبل أن يصيبني سهم كيوبيد، لقلت لك أنه مسألة بسيطة أساسها الانجذاب والانسجام بين شخصين لفترة قد تطول وقد تقصر. لكنني أقر الآن أن فيه زاوية من التعقيد لم تكن تخطر بالبال.
لا أعلم إن كان أحدهم سبقني لهذه الفكرة، لكنها هي التي تفسر ما ألم بي على حين غرة. ما الذي يفسر شعوري بالعشق في نفس اللحظة التي تسربت فيها إلى نفسي فكرة الموت لتزلزل كياني.
قد يكون غابرييل غارسيا ماركيز هو من انتبه لذلك حين قال:
" هذا الحب في كل زمان ومكان، ولكنه يشتد كثافة كلما اقترب من الموت"
تذكرت هنا أيضا قولا يفيد هذا المعنى " أن نحب معناه أن نموت قليلا"
لاحظ معي أن ثنائية الحب والموت هذه، رهيبة لو تأملناها بعمق. فالإنسان كائن راغب كما يرى الكثيرون ولكنه كائن من أجل الموت بحسب هايدجر. تتنازعه غريزتا الإيروس والتاناتوس، وبالتالي فالحب له وجهان، الحياة والموت ولا يمكن تصور أحدهما بعيدا عن الآخر فالحب حضور دائم أما الموت فهو الغياب المطلق.
وكأن الحب بداية للحياة للصرخة الأولى للصفاء والبراءة. أما الموت فهو الفناء والغاية. وبذلك لا يمكن تصور أحدهما بمعزل عن الآخر.

arabworldbooks.com

إنه الوجود البشري بقوته وضعفه،

مؤكد أنك أيضا تضحك في سرك، معتقدا أنك قبضت على حقيقة لم يدركها الآخرون، وهي أن ما أكتبه الآن تحركه نزعة مركانتيلية تستغل موضوع الحب للترويج لهذا المكتوب. في هذا العصر الذي يشهد تمزق الإنسان بفعل طغيان العزلة وانكفاء كل شخص على ذاته.
أعرف مواقفك ونواياك ولكن كن على ثقة من أنني لست في حالة إفلاس حتى ألجأ لمثل هذه الحيل طمعا في تسويق ما أكتب.
لا يتعلق الأمر هنا سوى بوصف وضع ضبابي في الحياة، جاذب للتأمل ومحفز له، ولأن جلسات الثرثرة في العالم الأصغر لم تعد ممكنة للغوص في هذا الموضوع، بعد تشتت أفراد الشلة الشقية، عدت إليك لأناقشك ونعمق تصورنا للموضوع، لما أعلمه فيك من ميل للمشاغبة وإثارة زوايا من المشكلة لم، ولا تخطر ببال الكثيرين.
بعد مغادرتي لرحاب الجامعة، ليس بإمكاني الادعاء بأنني رجل سعيد. ولذلك فدماغي لا يكف عن الدوران، فعندما يكون الإنسان سعيدا، فهذا يدل على صحته البدنية والنفسية، لكن مخه يشتغل بنسبة أقل، ويغمره شعور بالكسل والإشباع، وفي هذا الحال يفقد وعيه بذاته، لأنه يعيش حالة من الغبطة والنيرفانا كما يقول شعراء الدرجة الثالثة، وحين يعيش القلق ويغمره هم السؤال يشعر بالندم بسبب ما ضاع منه من وقت بعيدا عن تأمل الواقع والحياة.

arabworldbooks.com

حالة الاستغراق في التأمل تخلف في ذاتي شروخا عميقة تتسرب منها ذكريات، وسيل من الحكايات من سديم ماض يأبى النسيان...
أتذكر زنازين ضمت بين جدرانها ما عشناه لفترة من شبابنا دفاعا عن كرامة الإنسان، لحظات أجد صعوبة في الإمساك بكل تفاصيلها في هذه اللحظة، بكاء وصياح وأنين، آلام بشتى الألوان لم أكن أخشى الموت في تلك الأيام لأنني لست جبانا بطبيعتي، كنت أعتبر كل ما أقوم به تضحية، الحياة في زنازين لها أرقام تم نقشها فوق الإسمنت والورق، حفرت في الذاكرة المثخنة بنكبات الوطن، لحظات ألم عميق سرعان ما يعود للسطح!
ذكريات ضرب ينهال عليك في الظلام، شعور بالقهر والدونية واليأس والعذاب في صناديق تنبعث منها روائح البول والحقارة والموت.
تذكرت المرحوم علال، أتعس السجناء كما كنا نسميه، هاجمته الأمراض في المعتقل وفي لحظات وهنه وقع مثل آخرين تحت رحمة واحد من حراس السجن الذي كان يجلب للسجناء من أهاليهم بعض الأغراض والأدوية مقابل المال. مات علال بعد أن هزمته الأمراض، أما الحارس فأصبح بفضل ما استنزفه من أموال أسر السجناء يملك مزرعة وماشية تدر عليه الكثير بعد التقاعد من الخدمة، ونحت له الإعلام صورة ملاك الرحمة الذي أشفق على السجناء.
هكذا هي سخرية الحياة التي تغذي مساحة التفاهة وعدم الجدوى. ولن تخفف مرارتها ما يرويه البعض عن التداخل الغامض للصدف في بناء الأحداث وتنظيمها.

arabworldbooks.com

لحظة الأرق والغياب

قضيت وقتي مضطربا وجسدي واهنا، وزاد من قلقي آلام في الرأس لم أقو على تحملها. بجانبي قنينة ماء وأقراص دوليبران، وضعت اثنين منها دفعة واحدة في كأس وانتظرت ذوبانهما قبل أن أدلق السائل في جوفي.
وتساءلت لا يعقل أن أظل على هذا الحال أنتظر الشفاء. علي تجاوز هذا الحال عساني أجد حلا وتفسيرا لعلتي.
وفي لحظة غمرتني رعشة شملت جسدي من قمة الرأس إلى أخمص القدمين ولفني شعور حاد بالبرد لدرجة صارت أسناني تصطك بإيقاع لم أكن قادرا على التحكم فيه أو إيقافه وتسارعت دقات القلب بشكل مخيف....
سيطر علي الخوف والهلع ولم أدر ما أنا فاعل في تلك اللحظة . وفكرت إذا كانت هذه هي النهاية من الأفضل لي أن لا أعيشها وحيدا وأموت دون أن يعلم أحد بما جرى وتهجم على العمارة روائح نتنة لجثة متعفنة.

arabworldbooks.com

لففت البطانية حول جسدي وقمت للبحث عن الهاتف وابتسمت لسخرية القدر، فجأة صار للهاتف أهمية حاسمة ... كان فوق مكتبي مغلفا برماد السجائر، مسحته بيدي المرتعشة، لم يكن معبأ بالطاقة بقدر كاف فربطته بالشاحن وأنا أستعرض ارقام الهاتف، ظهر اسم شلومو، طلبت رقمه وبي شك بإمكانية وجوده بالمغرب وبالأحرى بمكناس. فجاءني صوته ضاحكا :

- أهلا بالذئب أين اختفيت كل هذه المدة.

أجبته بصوت واهن ومحشرج.

- هل ما زلت بمكناس؟

- نعم كنت أنوي السفر في نهاية الشهر، مابك ..

كان صوتي مرتعشا لما أخبرته أنني مريض وأحتاج عونه هذه الليلة. لم يطل الكلام وقال بجدية :

- سأكون عندك على وجه السرعة.

ظللت أتجول في الشقة متلحفا بطانيتي في انتظار وصول شلومو، طبعا كان منظري مثل مجنون أو مجذوب هائم على وجهه في موسم الهادي بنعيسى، منظر مثير للشفقة وكنت ستضحك من حالي بالتأكيد. شعرت بالوقت يمر بطيئا وبدأت أفقد صبري بعد مرور ما يقرب من نصف ساعة، أدرت المفتاح لأسمح بدخول شلومو لو جاء دون أن أكلف نفسي عناء الوقوف مرة أخرى.أخذت الهاتف معي وعدت إلى السرير بعد أن ربطت الشاحن بالكهرباء وتمددت طلبا للراحة في انتظار وصوله.

arabworldbooks.com

أحسست ببعض الارتياح حين خفت آلام رأسي قليلا. وسرعان ما داعب الكرى عيناي.
أيقظني من غفوتي طرق على الباب. ها قد وصل شلومو أخيرا.
أدار مقبض الباب بعد لحظة ثم ولج مصحوبا بشخص آخر فهمت أنه دكتور لما رأيته يضع حقيبته قرب السرير:
- دعني أفحصك قال الطبيب.
استسلمت له وهو يفحصني ويطرح علي جملة من الأسئلة.
متى حصل ذلك هل لديك حرارة أو إسهال....
هل تشعر بالدوخة أحيانا؟ ضيق في التنفس؟ بالرغبة في الغثيان أو التقيؤ؟ تسارع ضربات القلب؟ آلام في الرأس؟ ارتعاش؟ شغور غامض بالخوف؟ .....
كانت سلسلة من التساؤلات الدقيقة ، أجبت على بعضها بالإيجاب، وتبدى لي أن الطبيب اتجه رأسا إلى ما أعاني منه بمنتهى السهولة، وقد يكون شلومو قد حدثه عني قبل الوصول.
بعدها بدأ يكتب وصفة الدواء، هذه مجرد مهدئات ، لست بحاجة إلى دواء في الحقيقة بل بإمكانك علاج نفسك لو وقفت على ما يصيبك بالهلع والقلق، هي مشكلة نفسية بالأساس ويبدو لي أن بإمكانك تجاوزها لو اتبعت نصيحتي باكتشاف الأسباب وحبذا لو تضع برنامجا لكتابة وتدوين كل شيء على الورق، فهذا كفيل بمساعدتك على تجاوز مشكلتك . كان شلومو مهتما بمعرفة مرضي متخوفا من إصابتي بفيروس كورونا، فأجابه الطبيب:

arabworldbooks.com

- لا، كان ذلك أول ما تبادر إلى ذهني، لكن أمره مختلف إنها أزمة هلع و إرهاق يبدوأنه يعيش حالة ضغط نفسي، لا يهتم بغذائه ونومه بقدر كاف.

ثم تابع وهو يوجه لي الخطاب :

تنفسك لا يبدو جيدا، وكذلك أظافرك ، يبدو أنك تدخن بشراهة وقد آن الأوان لاتخاذ قرار الامتناع عن التدخين، وهو أمر يرتبط بإرادتك قبل نصيحتي كطبيب. التدخين ممنوع فأنت تدمر صحتك بشكل بشع. لا داعي لأن أقول لك الكثير. أنت أستاذ ولا تجهل هذه الأمور . عليك باتخاذ القرار المناسب، الأمر متروك لك وحدك. عليك أن تقلق على وضعك الصحي أكثر من الآخرين، وليس لدي أدنى شك بأنك ستتجاوز هذه المشكلة. وإذا كنت تشعر بالحاجة للدواء أعطيك حقنة مهدئة لتتمكن من النوم وأنت بحاجة ماسة إليه فيما أظن.

قلت له أنني بحال أفضل، وأضاف شلومو :

- لا داعي للأمر يا دكتور سأقضي الليلة معه.

أشرت لشلومو أن يأخذ المال من جيب سترتي، فطمأنني بأن الطبيب أخذ ثمن أتعابه.

عاد شلومو مصحوبا بوجبة عشاء، لحم وفاكهة وقنينة ماء معدني من خمس ليترات. استشعرت طيبة الرجل وعمقه الإنساني، أخبرته أنني لست في عسر مالي بل في عسر وجداني وغربة فكرية عن هذا الزمن.

arabworldbooks.com

- الدنيا تتغير يا صديقي وما زلت تنظر لها بمعيار عصر قضى ومات.

هذا هو عيب من يختبيء في المكتبات ولما يخرج يجد الدنيا قد تبدلت ولم يعد له فيها مكان.

كان شلومو منشغلا بترتيب مائدة العشاء حين سمعنا جرس الباب، قد يكون الطبيب نسي شيئا عاد لأخذه قلت. كانت المفاجأة حين رأيت المحمودي بقامته المديدة يتوسط الباب:

- هذا المساء سنتعشى معا يا صديقي.

مرحبا بشاعر البيضاء، واستدار والبهجة على محياه حين رأى شلومو خارجا من المطبخ...

- وما أسعد الصدف أن يظهر الغابر عنا منذ زمن.

حول المائدة دارت أحاديث قطعها المحمودي حين أخرج من كيسه نسختين من ديوانه الأخير.

المحمودي كان منتشيا وهو يتكلم،وجهه يداه وعيناه بدا عليها لمعان ربما بفعل التعرق، ولكن أيضا بفعل بضعة كؤوس أفرغها في جوفه قبل المجيء للشقة.

سأل إن كان لدي خمر بالشقة فضحك شلومو قائلا :

- الرجل مريض يا سي المحمودي، ويبدو أنك ستلحق به قريبا بفعل الخمرة اللعينة.

كفاكم استخفافا بصحتكم.

arabworldbooks.com

ارتبك المحمودي كطفل ضبط بعد ارتكاب خطإ دون أن يعرف كيفية إصلاحه. أشفقت عليه وضحكت دلالة على أن حالي لا يستحق القلق.
تبدد ارتباكه مع دخان سيجارته ثم
ضحك قائلا:

- لقد فات الأوان يا شلومو.

قال ذلك واستدار نحوي يسألني عن حالي وأحوالي وعن آخر ما كتبت.
ابتسمت قائلا:

- خربشات سميتها "لحظات عابرة " أنا بصدد وضع آخر اللمسات عليها.

وتذكرت ضاحكا:

- وقد منحت قصيدتك الأخيرة مساحة داخل هذه اللحظات.

كان سعيدا بما ذكرت لكنه أصر على حذف اسمه وأنسبها لشاعر مغربي فقط.
أعطيته المخطوط من أجل الاطلاع وتوجهت إلى غرفة نومي طلبا للراحة.
تناولت منوما وأغمضت عيني حتى أشعر بالاسترخاء وأطلق العنان لروحي عسى أن تتمدد في ظلمة كثيفة وهادئة. لأعانق الفرحة الداخلية التي تمنحني فرصة التأمل الأرقى.
وأنا أتصفح أوراقي أغمضت عيني على أبيات لويس أكرمان:

arabworldbooks.com

Elle se dissoudra, cette argile légère
Qu'ont émue un instant la joie et la douleur ;
Les vents vont disperser cette noble poussière
Qui fut jadis un coeur.

الحياة الميتة والكينونة المنفية ليس بإمكانها أن تجعلني منتميا لهذا الزمن، ولا أن تمنحني فرحا ولو قليلا، لا فائدة لكائن تابع بلا تفرد واختلاف، ربما لسذاجتي ما زلت أومن بزمن مثالي وقدرة على الفعل وخلق الفرحة.
كل كائن يتكون مما يختاره ويفعله.
منذ فترة أدركت أنني ضيعت وقتي
وكلما عدت قليلا بذاكرتي إلى الوراء، وقفت على حجم الكارثة، وكمية الوقت الذي ضاع. كنت مختبئا بين كتبي كما قال شلومو، لكن أيضا بين جدران قاعات كلية أو مقهى أو مطعم وحتى داخل "العالم الأصغر"...
كان الوقت يجري وأنا خلفه أشتكي من أنني ليس لدي وقت للكثير من الأشياء. تهيأ لي أحيانا أن المجهول صار له وجه معلوم وأنني لامست الحقيقة التي جعلت منها الوكد من مسار حياتي بأسرها.
غير أنني بقدر سرعة جريان الوقت تعاظم شعوري بالجهل وبعدي عما أعشقه وأفكر فيه...

arabworldbooks.com

أو همت نفسي أحيانا بالإمساك بلحظات جميلة بين أحضان الطبيعة أو أحضان امرأة، وكنت سعيدا، أو هكذا خيل لي في بعض الفترات.
بالصدفة رأيت الصفريوية تركب سيارة صحبة ولديها وزوجها بمدخل مدرسة خاصة، نظرة أسى غير التي جمعتنا فيما مضى لما رقص لها الفؤاد، ونحن نشرب من كأس الغرام. لم أكن أعلم أن المحمودي يراقبني وأنا أتابع السيارة بنظراتي، فحدثني هامسا في أذني بنبرة ساخرة :

- هل تنتظر أحدا يا سيدي

أجبته مازحا:

- أنا أنظر للزمن الذي يهرب.
- هل هو موجود في تلك السيارة
- نعم هو بعينه.

بعد توديع المحمودي الذي كان سيستقل الحافلة نحو الدار البيضاء، وفي لحظة بوح مع غادة النادلة بمقهى الملتقى قالت:

- هل تعلم كم تكسب صديقة لي ترقص بإحدى العلب الليلية؟ أقسم بالله أن مدخولها يتراوح ما بين عشرة وعشرين مليونا في الشهر وهي غير راضية، أما صاحب المحل هنا فيعتبر الأجر هدية يمن علي بها شهريا، لا أخفيك أنه لولا كرم الزبناء ما كنت لأضمن مصاريف البيت.

ومن حيث لا أدري تساءلت ما الذي يحدد قيمة الإنسان؟ لم تعد إجابة كانط تقنعني بوصف هذه القيمة لا ثمن لها وهي محايثة لماهيته البشرية.

arabworldbooks.com

طالما أن الإنسان صار عاريا فاقدا لحريته وخصوصيته في عالم تسيدته شركات رقمية متاجرة بكل مقومات هذه الماهية. إنه عصر سلطة الغباء Mediocratie كما سماها آلان دونو. فلا حاجة للكتابة والبحث والتفكير لأن أصحابها زائدون عن الحاجة.
كأنما أجبرنا على العيش في زمن غير زمننا، زمن يرفض العقل والحرية، زمن صار الكتاب صك اتهام، وجرأة التفكير مخاطرة، والاختلاف في الرأي انتحارا...
يشدني الحنين إلى فضاء المدرسة والمعلم يدعونا لترديد الآية " اقرا باسم ربك الذي خلق..." كان يغمرنا شعور مهيب وقوي ونحن نرددها بقوة، كنت سعيدا كذلك وأنا أرددها جهرا في أرجاء البيت لحفظها كما طلب منا المعلم. وتنامى شعوري بأنني امتلكت رأسمال رمزي لما كان الوالد يطلب مني قراءة ورقة ما أو كتابة رسالة للأهل أو المعارف. هي ذكريات طفولية تنعش الحياة وتخفف من غلواء الزمن.
شلومو قال لي لم تعيش متاهة العزلة وأنت مثقف لامع؟ فضحكت حتى بانت أضراس عقلي كما كان يحلو للشاعر الصديق المحمودي أن يقول.
لعلك تذكر أننا قلنا ذلك يوما، العزلة تتولد في النفس حتى وسط الجموع لا بعيدا عنهم، وهذا كلام أورده شاعر أعشقه هو أوكتافيو باث، لا أعلم أي الأصدقاء أخذ ديوانه متاهة العزلة ولم يرجعه لمكانه.! .
هكذا أنت قال شلومو لا تفكر إلا بالكتب وما في الكتب. ابحث لك عن امرأة تملأ قلبك حبا وشغفا وربما تجعلك لا تميز بين الجمعة ويوم الإثنين وقد

arabworldbooks.com

تعطيك أبناء يضفون المعنى على حياتك، فالقلب الفارغ مثل جذع شجرة أجوف لا تسكنه إلا الحشرات التي تأكل رحيقه. فكر من أجل نفسك قليلا وانظر للحياة من زاوية أخرى .

قضيت ليلة هادئة حتى أنني عايشت حلما جميلا كنت فيه وسط حقل أخضر تزينه ورود وأزهار، وفوق الأشجار طيور مغردة بمختلف الألوان، وأمام عيني كان نور الشمس ينير كل الكائنات كأنه نداء للحياة ...

لم أستيقظ إلا بحلول العاشرة صباحا.

بعد الإفطار غادر شلومو مستعجلا لأمر هام كما قال، مع التزام بالعودة وقت الغداء.

وتساءلت:

ما قيمة عشق ومشاعر لا ترقى بالإنسان دون عمق وجمال؟ كثيرون يكتفون بالحب، ويسعدون بوجوده...

ولكن هل امتلاك قلب صعب جريمة؟

وهل الاختلاف والشغف جريمة؟

هكذا يؤذي الناس بعضهم بعضا ! يتنمرون ويستأسدون ضد الحكمة والرقي والمحبة والجمال !

يخيل لي أن النسور بفضل أجنحتها الكبيرة لا يمكنها الحركة إلا في الأعالي، لكنها لو أجبرت على العيش فوق أرض منبسطة، ستكون تلك الأجنحة مصدرا للسقوط المدمر.

arabworldbooks.com

وكلما راودتني صورة جميلتي يراها القلب ويتجلى، ومن فرط الوجد أنشد وأغني...

لم كل هذا العناد
حركي جناحيك وطيري
معي للأعالي،
لا جدوى من حياة
يا رفيقة العمر
في زمن يعفره الخواء.
ماذا لو بدلنا دم القلب
بماء الذهب
أو ماء مطر نازل
من سحاب مكتئب.
لن أنام، حتى
يشرق النهار.
وأحتاجني
مجردا من روحي
ويداي ملوحتان
ومكان القلب
آنية من خزف

arabworldbooks.com

لا أراوغ الرياح
فقط أنا أنتظر!
فكم علينا أن نظلم
أنفسنا
وباقي البشر
.....
كل يوم أنا بانتظارك!
فلا ترحلي من ضلوعي
ووراءك دمي
قد يمتد الوجع
ينساب طربا
إذ أنهكه الصمت.
يستحيل يا سيدتي
في حضورك
أن يغيب الفرح
أن يخدع القمر
ويصبح الانتظار
مأساة عبر السنين.

arabworldbooks.com

فجأة غمرتني الكآبة والحزن، هذه الحياة مرعبة ولا مكان لي فيها، حينها أستبدل الحزن بالمسافات أقطعها مشيا حتى تتورم قدماي! لعلها تصبح حطبا لنار العقل المستعرة...

لدي كما قالت النادلة مبالغة في عدم الرضى بالواقع كما هو. فماذا علي أن أفعل بثورة القلب التي قلبت حياتي رأسا على عقب؟ هل أكون مجبرا على تقديم تنازلات قد تعصف بتوازني الفكري؟ أبدا لم يظهر لي الواقع صعبا غير قابل للاختراق مثلما هو الآن. وحدثت نفسي كما يحلو لك أن تنبهني في المعتاد:

ومن أدراك بأن من تعتبرها معشوقتك مهتمة بك وبما تفكر فيه؟

هذه هي خاصية الحب وجوهره، فليس بالإمكان تبين معناه وغايته إلا منه ولو بغياب الآخر وحتى في غفلة منه.

لا أتوقع شيئا من المستقبل، وأعلم يقينا أنه ليس في العشق ضمانات؛ ولذلك تراه شعورا متجددا باستمرار . فهذا القلب يا صديقي حي ما يزال، ولا يشيخ أبدا ولو عزفت بأوتاره ستغني لحن الجمال، والشغف ونور السعادة، لذلك أنزع ذاتي من براثن الواقع وأعود لشاشتي البيضاء ، أشكل حلما في الأعالي، فسيحا كالبحر ومنيرا كالقمر.

أتصورك مبتسما وحتى ساخرا وأنت تسمع مني هذا الكلام. وليكن كما تقول، ما العيب في أن أكون مثل الأكورديون، منفتحا على الواقع ومنكمشا على ذاتي، معفرا وجهي بتراب الأرض وبعدها أحلق في الأعالي....

arabworldbooks.com

لقد كنت غافلا عما يؤلمني، وحتى صامتا في جل الفترات...غير أنني أدركت في الأعالي مرامي وفي العزلة دواء لكل الأدواء.
عاد شلومو وقت الغداء، كنت بحال أفضل كثيرا ونزلنا معا، أخبرني ونحن في الطريق إلى مطعم "سي ميمون" بأنه ينوي الذهاب إلى فرنسا في الأيام القادمة وعاد يلح علي من جديد لمرافقته إلى فرنسا:

- ما زال العرض ساري المفعول لو غيرت رأيك. لديك سبعة أيام لاتخاذ القرار.

هذه المرة كنت مستعدا للقبول، فهم شلومو موافقتي لما ارتسمت على وجهي ابتسامة رضى، فما أشد سعادتي بالأعالي قلت له سيكون التحليق عبر الطائرة سبيلا لفرد جناحي التأمل والخيال.
إن "الروح الإنسانية ليس بإمكانها أن تكون سعيدة إلا بالنقل" كما يقول بوسويي.Bossuet على الرغم من أن الإنسان "عندما يصل ... إلى الحرية يكونُ مرهقا " وهذا كلام أصاب فيه صاحب الشارب المستفز وكان صادقا بشكل نادر.
فليس من الضروري أن يكون طريقنا نحو الحب والسعادة خاليا من كل الشوائب، بلا شوك ولا أحجار، طريقا حريريا بلا عوائق ولا منعرجات... لقد كان القلب حرا في اختيار من يحب، ومن الطبيعي أن يستشعر الإنسان بعض الإرهاق.

arabworldbooks.com

لحظة العبور المؤجل

عادت إلى ذهني فكرة ملهمتي مرة أخرى، وتساءلت هل كانت حقيقة أم خيالا؟ امرأة واقعية أم مجرد فكرة من بنات أفكاري.
العشق مرهق يا صديقي ويغريني الإنصات للقلوب الفخورة والاشتراك في فرحة الوصول. هي مخاطرة تسمح بقياس مدى تحمل القلب للحظة الاتصال الكبرى.
ها أنت ترى أنني قد لا أكون معك دائما على نفس الموجة، بل قد أخلق لديك حيرة لتبقى معلقا بين الحقيقة والخيال متأرجحا بين الشك والتصديق.
هب أنني مثلا من أجل وضع نهاية لقصتي معها مع معشوقتي، أنني اشترطت على شلومو أن نعرج على الرباط قبل السفر، لحسم موضوع من حركت شغاف القلب، وهناك قادتني الصدفة إلى متجر المهدي لشراء بعض الأشياء.
ما أن رآني حتى ألح علي بالانتظار لأنه يريدني لأمر هام، ودعاني للدخول أنا وشلومو، إلى الغرفة الخلفية للمتجر وهناك حكى لي قصة أقرب إلى الخيال، على نحو ما ورد في الحكمة الصينية :

arabworldbooks.com

إذا نظرت إلى الشيء مرة أولى تبين لك جماله، وإذا نظرت إليه مرة ثانية ظهرت لك حقيقته!.

عاتبت المهدي على تقصي أخبار المرأة، لكنه اعتبر ما قام به من بحث عربون محبة، ولم يكن في نيته غرض سوى أن يساعدني، ولذلك فهو يأسف لكون خدمة العمر التي كان ينوي تقديمها لي لم تكن كما تمنى وشاء.

فالمرأة التي أحببتها يا صاحبي، يقول المهدي، قليلة الاختلاط بالناس، متزوجة من رجل عشقته وهربت معه من زوجها الأول الذي اضطر لفك ما يربطه بها. لم أعرف من المهدي سبب هروبها ولم تراودني حتى فكرة طرح السؤال. فقد كنت أفكر في قرار الهروب... لأن هذا الفعل له بالضرورة مسببات منطقية مفترضة، أبسطها أنها تزوجت هذا الرجل مرغمة من طرف الوالدين رغم أنه يكبرها سنا، وربما لماله أو حماية لوالدها من بطشه بسبب دين عليه ...

وبعد إنجاب طفلين مع زوجها الجديد، أصيب إثر حادثة سير، وكأن ما حصل كان مقدرا له بحكم عمله كباحث في مختبر علمي مما كان يدفعه للتنقل داخل وخارج البلاد. فأصبح مشلولا فاقدا للحركة ، مما اضطرها للعمل كمدرسة بإحدى مؤسسات التعليم الخاص، لتدبير أمور حياة عائلتها الصغيرة .

قد يرغب البعض في تصور ما حصل لها عقابا لها لأنها خائنة، لكنني أطرح الأمر من زاوية نظر مختلفة، لأن

arabworldbooks.com

الإقدام على هذا الفعل يستلزم شجاعة كبرى وتضحية من أجل الرجل الذي أحبته واختارت الهروب معه، مع ما يترتب عن ذلك من نظرات الناس ومواقفهم وأحكامهم على المرأة التي تقدم على هذا الفعل، فهذا أقوى دليل على عشقها المكين الذي قادها لكي تضحي من أجل من تحب وهو مشلول الحركة.

هذه نهاية مفترضة لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار، ولكنها نهاية ممكنة، منفتحة على إمكانات أخرى، لكنها في حدود هذه اللحظة تسمح بعبور فقرات هذا النص من الألف إلى الياء من البداية إلى النهاية و من هذا العِبر إلى ذلك العِبر. وهذا أمر يناسبني من حيث التوقيت لأنني عازم على السفر مع شلومو، وأنت خير العارفين أنه وضع يلائم طبعي الميال إلى تجنب الإطناب والتفاصيل المملة، تذكر المرتجي الثرثار الذي كان لا يشبع من الكلام ويسعد في جلسات الثرثرة حين احتار في أمري، ولشدة حنقه من صمتي قرر ذات مرة إجراء مساءلة غايتها معرفة ما يبرر ميلي للاستماع وما يفسر عزوفي عن إشباع من يخاطبني بالتفاصيل. وباءت محاولته بالفشل ولم يجد لدي ما يشفي غليله. ولعلك تعلم أن أكثر الناس صمتا واستماعا يحملون في دواخلهم هما لا يحتمل. وتعلم كذلك أن ما أكتبه دائما فيه اقتصاد واختصار كالمعتاد، فما فائدة التفاصيل في زمن يجري بسرعة الضوء ! وما فائدة كتابة مطولة لن تجد لدى قراء اليوم ما يكفي من الصبر لإنهائها ؟ هذا الأمر جعلني هذه المرة أيضا متوافقا زمنيا مع قرار شلومو الذي يريد أن نعبر الأجواء في أقرب وقت بعد أن استهوتني فكرة السفر إلى الخارج.

arabworldbooks.com

لقد آن الوقت لأرتاح من الكتابة.
سألملم وريقاتي لأتمكن من مراجعة ما كتبت. دعني إذا أهرب من كلماتي، فقد سقيتها قطرات من حنقي وغضبي، وقلمي لم يعد يجد متسعا من الزمن.
دعني إذن أعبر إلى الضفة الأخرى من المتوسط بحثا عن حفنة من أكسجين الإثارة، عسى أن يكون في هذه المغامرة ما يجعلني أكثر قربا من مصيري الفكري والروحي، وأبسط لذاتي متسعا من التحرر لأفرد جناح التحرر والانطلاق نحو القمم والأعالي.
قد تكون هذه اللحظة نقطة تحول في حياتي خصوصا وأنني بطبعي لا أعشق الأسفار. ومع ذلك بثت فكرة السفر في ذاتي ما يشبه فرحا طفوليا لكنه مشوب ببعض القلق من أخبار انتشار فيروس كورونا وظهور الإصابات الأولى بالمغرب. لسبب ما أفكر في وضع نقطة نهاية لهذا النص...
أراك مندهشا ووقع المفاجأة عليك عميق يا صاحبي، فقد كنت أرمي طرح موضوع الموت والحب بين ثنايا هذا المكتوب بطريقة غير معتادة، دفنت فيه بعضا من مشاعر الأسى والغضب، لكنني اهتديت بنور الشمس الذي التمع قدامي في الحلم، فعسى أن ندرك الحقيقة ونهتدي للخروج من كهف اعتدنا على العيش فيه مع الأوهام.
لا يعني هذا نهاية لتواصلنا، لكنني من الآن سأضع اللغة جانبا في غفلة من الورق، ليكون التواصل بيننا روحيا مباشرا وبلا وسائط، فأنا مرهق قليلا ولا طاقة لي للاستمرار في الكتابة، حكم السن يا صديقي يهزم كل جهد فوق الطاقة.

arabworldbooks.com

ما أقلقني هو أخبار موت الناس في أنحاء من العالم مثل الصين وفرنسا وإيطاليا وأمريكا وإيران.. وبعض المعلومات عن إصابات هنا في المغرب...

وبينما كنت أعد حقيبة السفر، سمعت طرقا على الباب قد يكون شلومو قد عاد حاملا لبطاقات السفر، ولما لاحظت تجهم وجهه فأخبرني دون أن أسأله:

- تم إغلاق المطارات، لقد أعلنت السلطات حالة الطوارئ بسبب تفشي فيروس كورونا.

ها قد أصبح فيروس كورونا واقعا فعليا وحتميا إذن، والحق أنني لم أكن أعير الموضوع أهمية في البداية.

كان قرار إغلاق الحدود كلها صادما بالنسبة لشلومو الذي أصبح مكرها على البقاء مرغما هذه المرة، حاولت تهدئته لكنه كان بالفعل متأثرا بسبب القرار خصوصا أنه كان ينوي الاحتفال مع زوجته بعيد ميلاد زواجهما.

علت سحنته مسحة اكتئاب وانزوى بأحد الأركان صامتا، حاولت تهدئته قدر ما أستطيع حتى أقنعه بأننا نعيش فترة عصيبة وحاسمة، ومن اللازم أن نمتلك ما يكفي من التحمل والصبر. قد تكون لحظة انهيار عالم ونشأة عالم جديد كما يذكر الكثيرون...

عالمنا يا صديقي متخم بالمال والصراع ولا شك أننا بحاجة للمقاومة عسانا نسترجع بعضا مما ضاع منّا من قيم المحبة والسلام. فنحن نسير فوق جثث من عجز عن المواصلة ونخبط في الظلام خبط عشواء.

arabworldbooks.com

دعني أنهي كتابة هذا النص وأدخل بعض التعديلات التي خطها المحمودي ، فقد أدركت يا صديقي وهم الحقيقة والمعرفة. فنحن لم نعلم بعد بأننا لا نعلم أي شيء.

كانت مجرد لحظات عابرة مبعثرة وبعضا من شظايا ذاكرتي المترعة بالغضب والحيرة أمام أسئلة حارقة وأجوبة خامدة في ثنايا زمن مكتظ بالخيبات، تروي شذرات من حياة قلق، فيها من الخيال الكثير ولكن فيها كذلك عناصر وأحداث من الواقع، كان الوقوف عندها ضروريا لتثبيت بعض الأفكار حتى تسهل عملية العبور، وبعد أن تلمست الطريق يحسن بي الآن بأن أعلن بأنني عرفت أنني لم أعرف بعد أي شيء!

لا شيء يجب إهماله في الوجود ولكل حياة وزنها وقيمتها وحتى غايتها... في أية لحظة يتاح لي تضمين وجودي بأقصى درجات الافتتان الرائعة، وتشكيل حلمي بالإنسان المتماهي مع الكون والحقيقة والجمال...سأكون في أقصى درجات السعادة، ولو بين أحضان الموت المحتوم.

سلا: فبراير- مارس-أبريل
من سنة 2020

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com